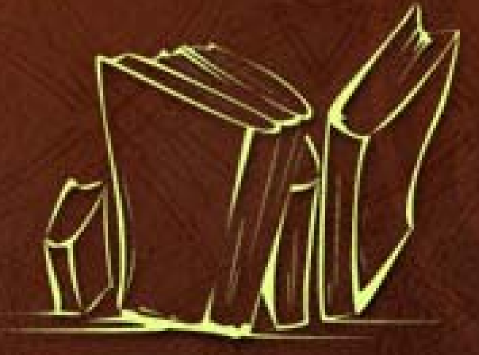


تأليف

نوال بنت عبد الله

مصدر هذه المادة:







بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على من لا نـــبي بعده ..

إن المتأمل في حال هذه الدنيا يجـــد أن أمرهـــا عجيـــب .. وتقلباتها أعجب .. فما أن نجد الإنسان يضحك إلا ونفاجـــأ بـــه يبكي .. وما أن نراه يفرح إلا وتبدو عليه علامات الحزن والهـــم والغم والكآبة، وهكذا الحياة .. ففي الحياة دروس .. وفي القصص عبر .. والنفوس من طبيعتها تألف القصص .. خاصة إن كانـــت واقعية .. فإنها تمس شغاف القلوب .. وبين أيديكم مجموعة قصصية أخرى من الحياة .. أسأل الله العلي القدير أن تجدوا فيهـــا العظـــة والعبرة والنفع والفائدة وأن تزيل عن نفوســـكم ركـــام الهمـــوم والأحزان والمصاعب والآلام.

أختكم في الله:

نوال بنت عبد الله

غرة شهر رمضان المبارك لعام ١٤١٩هـــ

* * * *

(١) حينما يستيقظ الضمير ..

دنيا عريضة بعرض امتداد السنين والأيام .. ليست إلا كلوحة امتلأت أصباغًا وألونًا تبهر الناظرين إليها ولكنها تستحيل فيما بعد زيفًا وكذبًا، هكذا هي الدنيا فلمَ الحزن عليها؟!! ولما الهـــم مـــن أجلها؟ ولما طول السهاد والأرق لفنائها؟! ولَمَ الانهماك والانغماس في أهوائها وشهواتها؟! لا أظن أحدًا لهـــى كلـــهوي، أو ضـــحك كضحكي أو تشبَّع من دنياه مثلي، وبرغم ذلك كانـــت حيـــاتي جحيمًا لا يطاق، ودموعًا لا تنتهي تدثرت بسواد امتلأ به فـــؤادي وسكن قلبي المسكين.

لقد كان نهاري ضائعًا ما بين غناء فاحش واســـتهتار كـــبير وتسكع في الشوارع والأسواق فالرقيب داخل نفسي مختف، أمـــا ليلي فينقضي في سهرات تافهة ومنـــاظر ســـافلة أمـــام القنـــوات الفضائية، ورنين الهاتف وسماعته كانت كغذاء لروحـــي الهزيلـــة بضعف الإيمان، الدنيا من حولي أضواء وصخب ومصابيح ولكنها كلّها زائفة، لأنني كنت أشعر بالظلام يحاصـــرني وديـــاجير التيـــه والضياع والنصب تحيط بي من كل جانب، تتقاذفني الأمواج مـــن كل حدث وبوب، وأنا صريعة أغرق في كل يوم، بل في كل ساعة حتى النهاية أتأرجح برغم سعادتي الزائفة، حياة لا معنى لها ســـوى الضياع والغفلة والنسيان بكل ما حملت هذه الكلمة مـــن معـــنى، اهتماماتي كانت دنيئة جدًا إلى حد الخسَّة ومع ذلك كلـــه كنـــت

عنيدة المراس بل متغطرسة، مكابرة، فقد غطَّت الغفلة قلبي، كنت لا أقبل نصح الناصحين لي، ولا ألتفت لدعوة الـــداعين لي، حـــتى أشفق علي والدي من سوء حالي، وبِتُّ معروفة بســـوء تصـــرفاتي وخُلقي.

لا أنسى كلمات أبي — والذي كان مشغولاً بشركاته وعقاراته وأمواله والتي أخذت جُل وقته — عندما أخذ يوبخني ويصفني بالعقوق وقلة الحياء والأدب، وقال من سيفكر بالزواج من فتاة سيئة مثلك .. لقد جلبت لي العار، لو لم يكن حرام علي لقتلتك، ومع هـــذا كلـــه كنت لا أبالي، أما والدتي المسكينة فقد ملَّت وسئمت مـــن كثـــرة توجيهاتها لي، بل لم تترك سبيلاً في تقويم اعوجاج نفسي إلا وسلكته، فمرة باللين ومرة بالتهديد وكنت في كل مرة أزداد شراسة وعنـــادًا حتى دمعات أمي الغالية لم تشفع عند نفسي المتجبرة، زاد الأمر سوءًا بعدما انتهيت من المرحلة الثانوية وتخرجت بنسبة ضئيلة جـــدًا بعـــد رسوب دام عدة سنوات، فلم تؤهلني تلك النسبة للالتحاق بأي كلية أو جامعة، فمكثت في المنزل وكان خبر مكوني في المنزل كالصـــاعقة لوالدي، فمعنى ذلك أن الفراغ في حياتي سيزداد، وسأزداد تبعًا لذلك سوءًا، وهذا ما حصل بالفعل.

عكفت في أثناء إجازتي المفتوحة على ما لا تحمد عقباه أغاني ماجنة، موسيقى غربية، أفلام مقززة، مجـــلات خليعـــة، روايـــات هابطة، حتى تخيلت نفسي من أرباب هذا العفن الفني، بل تخيلـــت نفسي أنني راقصة أو مغنية مشهورة لا يُشق لها غبار، وتناســـيت الحكمة التي لأجلها خلقنا الله في هذه الدنيا.

هكذا هو حالي في المنزل وفي خارجه مقابلة من أشاء .. لهو، عبث، زيارات لصديقات يفقنني سوءًا، استهتار وغفلة، ولكن الله تعالى دائمًا في مواكبة عباده ولا تغفل عينه مهما بلغ الإنسان عنان العتو والكبرياء والضلال (والله يهدي من يشاء).

ذات يوم وبينما أنا كعادتي في غرفتي أستمع لمزامير الشـــيطان وأترنح طربًا تارة وأنا واقفة، وتارة وأنا مستلقية، أو راقصة، أردد أطراف الغناء مع المطرب وقد سلبي لبّي، بينما أنا كذلك إذ بأختي الصغيرة ذات الأعوام السبعة تدخل على غرفتي وتجلـــس وتنظـــر لشكلي المضحك ولحركاتي البهلوانية، وقد اعترتها الدهشـــة، بـــل والضحك .. فما كان مني إلا أن أغلقتُ المســـجل وصـــرختُ في وجهها: ماذا تريدين؟

فقال: مها الصغيرة بكل خوف وتلعثم – فهي تعرف مـــدى قوتي وبطشي – أريد .. أريد أن أجلس معـــك .. إني خائفـــة .. حدثيني بقصة .. فليس في البيت أحد سوانا والخادمة هيّـــا معـــي لنخرج للحديقة فإني أحس بالكآبة والحزن.

ازددت حنقًا وغيظًا، وقلت لها بصوت دوَّى في الأرجاء بعد أن فتحت باب غرفتي: اغربي عن وجهي .. هل ضاق بك المنـــزل إلا في غرفتي .. اذهبي إلى الخادمة والعبي معها لا أريد أحدًا عندي .. هل تفهمين!!

استسلمت الصغيرة لأوامري المتعجرفة .. وانسحبت باكية .. وما زلتُ أصرخ كالمجنونة «العبي بعيدًا ولا تأتي مرة أخرى إلى هنا هل تسمعين؟!!».

لقد كدَّر صفو حياتي قرار أبي الأخير بمنعي من الخـــروج إلى صديقاتي .. ما زالت تهديداته يتردد صـــداها في مســـامعي .. أوه معقَّدين .. ظلمة ..

عدتي إلى عفني وأشرطتي .. واســتكملتُ الغنــاء والمــرح والطرب!!

ولكن شعور غريب يخالجني .. فراغ كبير أحس به في داخل نفسي، نظرت على ساعة الغرفة، إنها الخامســة مســاء، الوقــت مناسبًا لسماعتي الحبيبة ومغامراتي الحلوة .. مع فلان وعلان .. إنني أريد التسلية فقط فالحياة هكذا لا تطاق، فكرت في تأجيل هــذه المغامرات إلى منتصف الليل، فهو أنسب الأوقات بالنسبة لي، وحتى لا يفتضح أمري. الجمود يكتنف بكل شيء، ولكن ذلك الشــعور بدأ يزداد في نفسي، أحسست بالاختناق ورغبة شديدة في البكــاء والصراخ، أغلقت المسجل فبدت الغرفة هادئة نوعًا ما، اســتلقيت على السرير أفكر في أشياء بائسة، أو مضحكة أحيانًــا، حــدثتني نفسي لماذا لا أخرج إلى حديقة المنزل لعل في ذلك ترويحًــا عــن نفسي الملبَّدة بسوء الطوية والتصرفات، وبالفعل خرجــت وكــان الجو لطيفًا ولكنه يبدو كئيبًا، وبدا منظر الأزهار اليوم يحتضر حتى العصافير الصغيرة كانت تشدو حول الحديقة بلحن حزين وكــأن شيئًا من ذلك الاكتئاب والحزن تسلل إلى قلبي ولكن لا أدري لماذا؟

تسارعت خطواتي أكثر وأنا أتجول في حديقة المنزل وأردد:

أبكي وأضــحك والحــالات

أطوي عليها فؤادًا شــقه الألم

فإن رأيــت دمــوعي وهــي

فالدمع من زحمة الآلام يبتسم

ومع اقترابي من المسبح بدأ المنظر مرعبًا والصــاعقة كــان وقعها على نفسي كبيرًا، اقتربت أكثر لأنظر .. لأتأكــد .. فمــا راعني إلا هول المصيبة وعظم الفاجئة ..!! إنها أختي الصغيرة البريئة مغمورة في مياه المسبح الضخم، لقد غرقت فيه فهــي لا تعــرف السباحة مثلنا، أصبحت في حيرة من أمري .. ســرت رعشــة في جسدي المتعب الكئيب وبدأت أصرخ كالمجنونة وأنادي: مهــا .. مها .. ولكنها لا تجيب .. أتت الخادمة مسرعة مرعوبة من الصراخ والعويل .. فقد كانت في سباتها ونومها العميق .. شــبيه بنــومي وغفلتي ولكن من نوع آخر، انتشلناها من المســبح وبســرعة .. أخذت أحركها .. أهزّها .. أقلّبها لعلها تتحرك، لعلها تــتلكم .. لعلها تتنفس .. أتحسس نبضات قلبها الصغير ولكنه لا ينبض .. ما زالت بعينيك يامها دمعة من تلك الدموع البريئة التي سالت منــذ ساعة، إثر صراخي في وجهك .. وعلى ملامحك الهادئة مسحة من عتاب رقيق لي تعاتبيني .. حملتها بين ذراعي إلى داخل المنــزل وفي تلك الأثناء هاتفت الخادمة والدي فأتيا مســرعين وأخــذاها إلى المستشفى.

بينما كنت أمشي على غير هدى وأتخـــبط وأتعثـــر، أرى في صورتها وهيئتها صورة لغفلة كانت من حياتي قد تؤدي بحياة طفلة بريئة .. كنت أبكي وأدعو الله أن تعود أختي للحياة معافـــاة ولا أريد من متاع الدنيا شيئًا، فالدنيا أمامي الآن من أحقر شــــيء .. تذكرت أيامي السالفة الضائعة .. مر في مخيلتي شريط حياتي البائس في ظل الشيطان وحزبه .. جلست بجانب سماعة الهاتف .. انتظـــر وبفارغ الصبر .. قرار الطبيب في حالة أختي .. كانت نبضات قلبي تدق وبسرعة .. أخذت ألوم نفسي وأوبخها .. ليتني أذنـــت لهـــا بالبقاء معي في غرفتي .. ليتني استمعت إلى ما تريـــد .. ليـــتني لم أنتهرها .. يا ترى أو كانت تريد أن تودعني الوداع الأخير .. لا .. لا .. ستعود مها نعم ستعود .. كم سأطير فحـــرًا إذا رأيتـــها .. سأضمها إلى صدري .. سأقبّلها .. سأشتري لها لعبًا .. حلوى .. كل ما تريد ولكن عودي إلي أيتها الحبيبة مها ..

يقطع حبل أفكارها جرس الهاتف وهو يرن .. رفعته وبسرعة جنونية .. ومن هناك من المستشفى .. عزاءكم جميعًـــا في تلـــك الطفلة البريئة .. لقد تسرَّب الماء إلى جوفها بكثرة نتيجة مكوثهـــا أكثر من ساعة تحته ..!!

مع تسلل هذه العبارات إلى أذني ووصولها مباشرة إلى قلبي لم أشعر بما حولي فقد سقطت مغميًا علي .. لقد دوَّت صرخات قوية مجلجلة في داخل نفسي المشتتة، لا أدري بعدها ما الذي حصل .. وماذا جرى؟!! شيء واحد أدركته (بأن كل نفس ذائقة الموت).

بعدها أفقت من إغماءتي وقبل ذلك أفقت من غفلتي وسباتي الذي كنت أعيشه مدة طويلة .. الكل اجتمع حولي .. والبـــاكون حولي كثير .. سمعت أبي يقول:

لقد تركناها في المنزل بصحبة هذه .. فأكملت أنا بدلاً عنه: هذه الضائعة الغافلة التافهة .. عدت إلى غرفتي وقد أنهكـــني الهـــم والتعب والحزن .. عدت إلى وحدتي أبكي أختي .. وأندب تخاذلي وأصرخ من ضياعي .. أنادي: بالله عليكم لا تجمعوا علـــي بـــين عذاب القوم .. ومرارة ا للوم .. ارحموني فإني ضائعة.

إني أرى خيالك يا مها يداعب جفوني .. أرى صورتك أمامي عندما تعودين من المدرسة منهكة حزينة .. تركضـــين إلى غـــرفتي فتقبِّليني .. أرى خيالك وأنت تفـــتحين حقيبتـــك لتســـتذكري دروسك فأسمع صوتك الطفولي العذب يردد ذلك النشيد المعتاد:

أمـــي أمـــي مـــا أحلاهـــا هـــي في قلـــبي لا أنســـاها

فتلتفتين إلي وتنادينني ماما! أتخيل صورتك يا صغيرتي الحبيبـــة تقفين عند ألعابك تصاحبك براءتك ونظراتك الجميلـــة وصـــوت ضحكاتك العذب في كل زاوية يجعلني أفكـــر في كـــل شـــيء .. مرحك .. دعابتك .. كم مرة انتهرتك .. كم مرة قسوت عليك، بل كم مرة امتدت يدي لتضرب ذلك الجسد الغض وبدون سبب، كنت تبكين ثم تبكين لحرقة الألم بينما أنا أضحك سعيدة، وبعـــد قليل تنسين قسوتي عليك وتأتين لتحدثيني وكأن شيئًا لم يكن، إنها براءة الطفولة التي لا تعرف الحقد أو الغل .. رحلتِ يـــا مهـــا ..

ورحل معك ماضي البائس. أوه كم هي رخيصة حيـــاة العبـــث والهوى والمجون.

رأيت أمي أمامي باكية .. فقلت لها: لماذا تبكين أيتـــها الأم الحزينة، أتبكين رحيل ابنتك البريئة الحبيبة؟ أم تبكين وترثين حـــال ابنتك الضائعة المكلومة – وليس لك من البنات سوانا – كفكفـــي دمعاتك يا أمي ففي جنبي لوعة لو أخرجتها لفجرت ما أمامي من ضياع .. كفكفي دمعاتك يا أمي ففي جنبي لوعة لـــو أخرجتـــها لفجرت ما أمامي من ضياع .. كفكفي دمعاتك فحوادث الأيـــام وصروف الدهر وغيابات الزمن تقسو أحيانًا، وتضيق بأهلها أحيانًا، ولكن في نهايتها بشارة وغنيمة فقد أفقت – ولله الحمـــد – مـــن غفلتي الطويلة بعدما رأيت الموت بعيني .. لقد أشرق قلـــبي بنـــور الإيمان بعد حياة الضياع والضلال. بعدها تحاملت علـــى نفســـي المنهكة وأخذت ما كان من عفن في غرفتي وعلى مرأى من الجميع قذفت به بعيدًا إلى غير رجعة بإذن الله، وتحاملت على نفسي مـــرة أخرى وذهبت وتوضأت .. ثم كبرت مصلية لله، وعندما شـــرعت في الصلاة بكيت كثيرًا، بكيت لأيام سالفة من حياتي .. وبكيـــت أكثر عندما تذكرت أختي الحبيبة، فدعوت الله أن تكون فرطنا إلى الجنة .. اهـــ.



(٢) جارة السوء

حكايتي رواية لم تنته حلقاتها بعد، ولكن في ذكرهـــا عظـــة وعبرة، فأحببت أن أصوغها لكم لعل ذلك يخفـــف مـــن آلامـــي وأحزاني.

تعرفت عليها .. جمعتنا أرض الغربة وقربتنا البيوت أكثر، كنا جارتين بل أختين استهوتني بحسن تصرفاتها واجتـــذبتني بمعســـول كلامها كلا .. بل إن كلامها لسحر كل عبارات الود والتلطف قد جمعت في لسانها وجميع أساليب الدخول إلى القلوب قد أتقنتها هذه الإنسانة، لقد أحببتها وأخلصت لها من صميم قلبي لدرجـــة أنـــني كنت أصحبها معي في شراء ما أريده وخاصـــة حلـــيّ وملابـــس وكنت أثق بذوقها حتى وإن قال لي الأخريات عكـــس ذلـــك، لا أطبخ شيئًا إلا وتتذوق منه، بل وأنتقيه لها بنفسي وأحرص أن تأكل منه قبل عائلتي .. أصبحت زياراتي محصورة عندها ولا أزور بقيـــة جاراتي إلا بصحبتها، وذات يوم حضرتها الولادة وزوجهـــا غـــير موجود، احتضنتها بكل لهفة وشفقة ونقلتها برفقـــة زوجـــي إلى المستشفى والناس للناس وفعلاً يسر الله لها الولادة. عدت مسرورة بعد أن اطمأننت عليها وعلى مولودها. وعنـــدما حـــان موعـــد خروجها توجت إلى المستشفى برفقة زوجي لإخراجها ومع ركوبه في السيارة كانت المفاجأة التي صُعقت لهولها، حيث تعمدت كشف وجهها ونحرها أمام زوجي وبمرأي مني، فما كان منه إلا أن غـــض

بصره وانسحب خارجًا من سيارته مذهولاً، أما أنا فقد صـــعقت حقًا ولمتها على ذلك، فقالت: وماذا بالأمر؟ إنـــه أخٌ لي .. كـــان المفروض أن أتعظ من هذه الحادثة وتكون درسًا لمعرفة ما تطويـــه نفس هذه الجارة التي قامت بما قامت به .. وكان المفروض أن آخذ الحذر والحيطة .. ولكن نفسي الطيبة التمست لها الأعذار، وأنها قد تكون ندمت على تصرفها ذاك، وأنها لن تعود، وأنهـــا أحســـت بغلطتها .. إلخ وكانت هذه غلطتي.

مرت الأيام والصفاء بيننا يزداد .. وكدت أنسى ذلك الموقف منها، وذات يوم وبينما أنا عندها، إذ بها تفاجئني بطلـــب غريـــب عجيب .. ألا وهو أن أكشف وجهي لزوجها .. امتنعت وبشـــدة .. وعندما رأت رفضي وإبائي .. قالت: ليس في الأمر شيء، ثم هو أخ لك، ألم يراني زوجك؟!! ذكرتها بأنها هي من تسببت في ذلك وبكامل إرادتها ورغبتها .. بل إن زوجي لم يرض عـــن تصـــرفها بدليل خروجه من السيارة وغضه لبصره.

قالت: أنت لا تفهمين وســـتمكثين طـــوال حياتـــك غـــير متحضرة، وقروية، وكان أسلوبها معي على سبيل المداعبة والمـــزاد، وإذ بها تنادي ابنتها وبسرعة البرق أمسكت بيدي وأزالت غطـــاء شعري، ودخلت ابنتها وزوجها، لم أستطع الفكاك منها لصـــعوبة الموقف، ولشدة قبضتها علي، فهي قوية البنيـــة، وبعـــد خـــروج زوجها، قالت لي مسلية وبكل خبث: ليس من العـــدل أن يـــراني زوجك، وزوجي لا يراك، في تلك اللحظات لم أستطع الكلام ولا التعبير، بل انحدرت من مقلتي دمعات ساخنة، تأسفت على تلـــك

الثقة العمياء التي أوليتها إنسانة عديمة الإحساس، قليلـــة الـــدين، خرجت من بيتها وحرصت على عدم إخبار زوجي بالأمر .. لأنه سيصب علي جم غضبه وسيلومني على ضعفي واختياري لصـــحبة هذه الإنسانة .. واكتفيت بمقاطعتها .. انشغلت بنفسي وزوجـــي وابني الوحيد .. فموعد اختباره قد قرب، وذات يوم جـــاءت إلي هذه الجارة متأسفة متندمة على ما كان منها، وأبـــدت انزعاجهـــا لمقاطعتي إياها، وطلبت مني العفو والصفح، وكان يلزمني أن أكون حذرة منها .. فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، ولكـــن طيـــبتي المعهودة جعلتني أقبل تأسفها واعتذارها .. وحرصـــت أن أقلـــل زياراتي لها، ولكنها أصبحت هي التي تزورني كل يوم وكنت أتحرَّج كثيرًا عندما أنبهها أن علينا امتحانات، وربما لجأتُ للصراخ علـــى ابني وضربه أحيانًا حتى يذاكر ولكي تفهم .. فلم يكن يؤثر ذلـــك فيها أبدًا، بل كانت تتجاهل الأمر وبشدة، ثم تـــثير الحمـــاس في أطفالها لرفع أصواتهم عند اللعب معللة «بأن الطفل إذا لعب كـــثيرًا نام بهدوء أكثر» .. انتهت أيام الامتحانات .. وكانـــت النتيجـــة بالطبع رسوب ابني وأظهرت عدم مبالاتها بالأمر، بل وســـرورها، وأنه ما زال صغيرًا.

بدأتُ أشمئز من حركاتها، ولبسها الذي لا يكاد يستر جسدها خلاف ما عهدناها عليه ولطالما رددت على مســـامعي ومســـامع غيري عبارة «أمنيتها أن يتزوج زوجي».

اعتقدت أنها تمزح .. وأنها مجرد مداعبة .. ولكني اكتشـــفت غايتها وهدفها وهو التفريق بيني وبين زوجي. لكن .. لماذا؟! وأنـــا

مَنْ وهبتها ثقتي وصداقتي .. هل لفارق المستوى المادي بيني وبينها؟ أم لما أنعم به من راحة في أسرتي؟ أم حسدًا مما تراني أرفل فيه مـــن نعيم، أو لقوة شخصية زوجي ومكانته المرموقة على خلاف زوجها عديم الشخصية؟ إنني لم أبخل عليها بشيء من ملابســـي وحليـــي وأدواتي فما سبب هذا الحقد والحسد منها؟!! وبسبب تصـــرفاتها السيئة تجاهي .. لم أعد أفتح بـــابي لأحـــد لا هـــي ولا غيرهـــا. وانقطعت عن الزيارات. أما هي فقد أحست بذلك وخلال هـــذه الفترة أصبحت لا تجتمع بأحد من النساء إلا وتهمـــس في أذنهـــن بشيء يسيء لي كذبًا وزورًا، وبدأ النساء يتناقلن كلماتهـــا والـــتي وصل الأمر أن مست عرضي .. أخبرت زوجي بهذا الأمر، فذهب إليها وتحدث معها، فما كان منها إلا أن قالت: إنني أنا التي قلـــت هذا الكلام عن نفسي وأنها ممن سمع فقط.

فعاد زوجي إلي قائلاً: اتركي مداخلة هذه المرأة إلى الأبـــد .. ابتعدي عنها وعن وجع الرأس .. ضاقت علي الأرض بما رحبـــت فقد تركتها لكنها لم تتركني .. فما زالت تشيع عني الأكاذيب في أوساط النساء .. وهن يعرفن قوة علاقتي بها ســـابقًا، فيصـــدقنها وكما ذكرت سابقًا فلها أسلوب عجيب في الإقناع فســـخرته في الشر والإفساد .. لقد أشاعت أن أحدهم أخذني إلى الخروج يومًا ما .. وآخر يأتي ما بين الساعة الثانية والثالثة ليلاً فأخرج معـــه .. وأنني أترك باب بيتي مفتوحًا في فترة غياب زوجي و .. و .. و .. وغير ذلك من الأكاذيب التي يشيب منها الولدان، ولا أقـــول إلا حسبي الله ونعم الوكيل، لقد قالت عني الكثير والكثير فهي تذهب

إلى كل امرأة وتعطيها كذبة غير الأخرى .. لنشر الإشاعة وهي بين النساء أكثر انتشارًا من النار في الهشيم .. وكله ظلـــم وبهتـــان .. رددت حسبي الله ونعم الوكيل **﴿إِنَّ الَّـــذِينَ يَرْمُـــونَ الْمُحْصَـــنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَلَهُمْ عَـــذَابٌ عَظِـــيمٌ﴾** [النور:٢٣].

وكان النساء ينقلن لي كثيرًا مما تقوله عني .. فصرختُ بأعلى صوتي .. أسألكم بالله لا تنقلوا لي شيئًا مما تقول كفى نميمة وكذبًا وزورًا .. من كانت تعزني .. وتودني حقًا فلتدافع عن عرضـــي في مجلسها وحسب .. اتقوا الله وتذكروا .. «**من ذب عـــن عـــرض أخيه المسلم بالغيب، ذب الله عن وجهه النار يوم القيامة**».

عندها استفحل الأمر ووصل عند زوجي ذروته، فقد اتهمتني بأنني أعطيت زوجها نسخة من مفتاح البيت ليقْـــدُمَ علـــي في أي وقت شاء وحسبي الله ونعم الوكيل، فقرر زوجي أن يتوقف هـــذه المهازل، وعزم على التحدث مع الرجال ورجوت من ذلك خيرًا .. أقل ما رجوت أخذ حقي المهضوم منها وإظهار براءتي وفعلاً قرروا الاجتماع والحكم في هذه المسألة، وجاء اليوم المحدد وحضر كـــل من عرف بالأمر واهتم به، ليحكم بيننا أحد أئمة المساجد، وكان علينا نصف تكاليف العشاء، وجلس الرجال على حدة يتحـــدثون والنساء على حدة يسمعن ما يحدث ثم جاء الإمام وجلس في مقعده المعد له، ونادى بعد حمد الله والثناء عليه وعلـــى رســـول الله ﷺ، نادى على تلك الجارة فأجابته بقولها:

يا شيخ (..) إن النساء قبل حضورك بقليل يستهزئن بدينك و .. ومن هؤلاء فلانة (وتقصدني أنا).

سكت الشيخ برهة، وقال بنبرة حادة: ماذا عن المفاتيح يا أم فلان؟

قالت وبكل ثقة: المفاتيح أُعطيت لزوجي من قبل فلانـــة — تقصدني — وذلك من أجل تعبئة أسطوانات الغاز.

فهالني تقلّبها في الكلام .. وابتكار الألفاظ .. وأصابني غـــمٌّ عظيم، وسألني الشيخ عن ذلك، فأنكرتُ وبشدة وصوتي مخنـــوق بالعبرة والدهشة معًا .. وطلب من النساء — اللاتي قمـــن بنقـــل الكلام — شهودًا على ما تقوله جارتي تلك .. أو ما أنكره أنـــا .. فلم يتقدم أحد رغم أن الحضور كثير وكثير جدًا .. عندها أدركت أهن ما حضرن إلا للتفرجة والمشاهدة فقط ولعدم نصرة الحـــق .. ومنهن من تعذرت لي بعدم إن زوجها بالتحدث في الموضـــوع .. وأنا أعلم أن هذا هراء .. ولكن، حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم استدعى زوج جارتي وسأله .. فقرر الشيخ (إمام المسجد) أن يحلف الرجل على كلامه، بعد أن أجاب مثل زوجته وبالفعـــل حلف — عليه من الله ما يستحق — على أنني أعطيته المفتاح ليجعل منه نسخة له .. الخ. وانفض المجلس و لم أستغرب ذلك أبـــدًا بـــل توقعته نظرًا لأني أعلم أن لها السلطة عليه .. فهو ينفّـــذُ أوامرهـــا بحذافيرها، لكني لا أقول إلا حسبي الله وننعم الوكيل .. حسبي الله ونعم الوكيل، فماذا أصنع؟ وهذا ما جنيته لعشـــرة دامـــت ثمـــان

سنوات ولأنني ما وفقت في اختيار الصديقة الصالحة التي تعينني على الخير ولأنني وهبتها الثقة العمياء والمؤمن يلزم أن يكون كيسًا فطنًا .. أصبحت أرى الأحلام المفجعة .. صدري يتأجج من نار الظلم والبهتان، تمر علي ساعات ذعر، وكراهية، وضيق شديد، لجـــأت للدراسة في إحدى دور القرآن بعدًا عن اجتماع النساء وهروبًا من المشاكل والقيل والقال والتي أفسدت علي حيـــاتي، ألا بـــذكر الله تطمئن القلوب وما زالت أدعو الله أدعوه وأتضرع إليه «**ودعـــوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب**» بأن يأخذ حقي منها عاجلاً غير آجل .. وحسبي الله ونعم الوكيل.

لقد أبدل الله الحال والمآل فصحبت الخيرات التقيات الـــلاتي يشع القرآن في قلوبهن ويبع الذكر والتسبيح من ألســـنتهن**!** إنهـــا صحبة طيبة في مكان طيب، وأدعو الله عز وجل أن يجمعنا في جنة عدن**!!**(١). اهـــ.



(١) وصلتني هذه القصة من إحدى الأخوات الثقات – بإذن الله -.

(٣) أمنية الحبيب

ليل حالك، ظلام دامس، أقفرت أوتار القمـــر، واســـترخت السماء، وسكن البشر إلا من عينين، أنهكهما التعب، لقد خـــارت منها القوى وهي تستذكر أصعب المواد بدأ النوم يداعب جفونهـــا، وكادت تستسلم، ولكن لا!! إنه آخر امتحان لها، بل إنها آخر سنة دراسية وتنتهي بذلك رحلة الدراسة لتنتقل إلى سلك التـــدريس إن أراد الله لها ذلك – فتحت نافذتها .. السكون يلف الكون ..نجوم السماء تتلألأ أمام ناظريها وكأنها تحادثها، صـــوبت نظرهـــا إلى البعيد، حدثت نفسها، من يصدق أن هذه آخر سنة لي، من يصدق أنني سأنهي مرحلتي الجامعية، ولكن هل أنهيها بسلام؟!

لا إنني أسعى جاهدة لتحقيق أمنية أبي الحبيب .. آه رعاك الله يا من كنت سندي وعوني في حياتي ومحنتي بعد الله – عز وجل – .. خاصة بعد فقدي لأمي الغالية في ذلك الحادث المروع، فكنـــت لي الأب والأم والأخ .. لم تبخل علي بشيء، كم حرصت علـــى تنشئتي النشأة القويمة .. بذلت قصارى جهدك لإسعادي وإرضائي، كم كنت ترمقني بعينيك الرحيمتين فتشفق علي، قد يكون ســـبب ذلك ما أصاب قدمي جراء الحادث فأصبحت لا أسير إلا برجـــل صناعية، ولكن هذا لم يؤثر في مسيرة حياتي بفضل الله ومنته، فأنـــا مستسلمة لقضاء الله وقدره، فمن رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى. إنني أعلم يا أبي أنك تريد

أن تعوضني عن حنان تلك الراحلة، وتسعى لتقدم لي مهجة عينيك نورًا لي في الحياة وقد فعلت ذلك بجدارة .. كنت دائمًا تقـــول لي أمنيتي يا حنان أن أمتع نظري بشهادتك الجامعية وأن تكوني نعـــم المعلمة والمربية،وأن يكون لك دور ملموس في نصرة دين الله، وها أنا ذا يا أبي أسعى لتحقيق رغبتك .. وخالـــد .. ذلـــك الشـــاب المستقيم – زوج المستقبل – والذي تنازل ..وقَبِلَ بفتاة مثلي على الرغم من العاهة التي أصابتني .. مَنْ مثله .. خلق دين .. أدب جم .. لا أنسى كلماته لي يوم عقد النكاح، اجعلي جُلَّ اهتمامـــك في دراستك وبالذات هذه السنة، لا أنسى مدى تفانيه وتعاونه معـــي فلقد أجَّل حفل الزواج حتى لا يشغلني عن دراستي وقرر أن يجعـــل الفرحة فرحتين فرحة استلامي شهادتي وفرحة زواجنا، كم راعـــى شعوري تجاه أبي الحبيب عندما طلبت منه أن أسكن بجواره فلـــيس لأبي أحد سواي، فلبى طلبي سريعًا ودون تردد، كيف أنسى هـــذه الأيدي الحانية في خضم حزني وآلامي وفقدي لأعز الناس لدي.

ومع هذه الأفكار الجميلة والذكريات السعيدة، انتابها شـــعور غريب شعور بالخوف والرهبة، فعـــادت مـــن جديـــد تفكـــر في المستقبل، ولكن يا ترى إذا لم يحالفني التوفيق وأنجح هذه السنة فما عساي أن أفعل؟!! وما موقفي من والدي؟!! وموقف خالد مني؟!!

استدركت كلماتها الأخيرة فاحمرّ وجهها وانطلقت من ثغرها ابتسامة عذبة وهي تقول: عيب يا بنت ماذا تقصـــدين؟!! أأنـــت مستعجلة على الزواج ثم لِمَ التشاؤم؟ استيقظت من هذه الأحـــلام الجميلة، وحاولت أن تحد من الاسترسال في التفكير لعلها تكمل ما

في يدها، فالساعة أصبحت الحادية عشرة مساءً، والمنـــهج أمامهـــا طويل، دست رأسها بين كتبها ومذكراتها لتستذكر ما تبقى لها .. وفي هذه الأثناء تسمع طرقًا رقيقًا على باب غرفتها .. أدركت على الفور من يكون هذا الطارق الحبيب .. قامت بخفة لتفتح الباب فإذا به والدها العزيز يحمل في يده كوب العصير.

وكعادته وبحنانه المعهود قال: كان الله في عونك يا حنـــان .. يبدو أنك تعبت من كثرة المذاكرة .. بل ويبدو عليك الإرهاق .. ألا تستريحين؟!!

ردت: بعد أن أخذت من أبيها العصير .. جزاك الله خيرًا يـــا أبي لماذا أتعبت نفسك لقد تكبدت من أجلي المشاق، المفروض أنني أنا التي أُحضر لك العصير، أنا التي أخدمك وألبي لـــك طلباتـــك، ولست أنت، لقد اعتقدت أنك نمت منذ فترة.

رد الأب: كيف يغمض لي جفن ويهدأ لي بال وأنت ما زلت ساهرة.

يا أبي حسنًا لم يبق لي إلا القليل، سأنهيه في الفجر بمشيئة الله، وسأخلد للنوم الآن وأنت أيضًا اذهب ونم، تبسم الأب خـــيرًا إن شاء الله يا ابنتي .. ألقاك على خير.

تظاهرت بالنوم إلى أن ذهب أبوها إلى غرفته، وأغلق خلفـــه الباب، رفعت بصرها إلى السماء، يا رب احفظ لي أبي. وأطـــل في عمره على طاعتك، والله يا أبي مهما فعلت لك فلن أوفيك حقك كاملاً .. عادت من جديد لتكمل مذاكرة دروسها.

خرجت من قاعة الاختبار وهي مستبشرة بما قــدمت مــن حلول، لقد كانت الأسئلة بالنسبة لها في غاية اليسر والسهولة .. إنه توفيق الله ودعوات الوالد .. أردفت: اللهم تمم على خير.

اجتمع حولها الصديقات وأخــذن يستعرضــن الإجابــات ويراجعن أوراقهن فهذه تؤيد الإجابة وأخرى ترفضها وتعــارض، وبينما هن في هذا الصخب والضجيج إذ بهن يلمحن حنان وهــي شاردة الذهن، تنظر إلى البعيد، إنها مرهفة الحس، تتصف بالهــدوء والاتزان .. بدأ الحزن على محياها إحساس بالكآبة يطبــق علــى صدرها.

تفاجأ منها زميلاتها .. تساءلن: ماذا بها يا ترى؟!! ألم تحــل جيدًا؟!! ولكنها قالت: إن الأســئلة ســهلة؟! قطعــت علــيهن تساؤلاتهن قائلة: أتدرون ماذا يعتبر هذا اليوم بالنسبة لنــا؟ فهــم زميلاتها مغزاها فخيم الصمت على المكان، وبدأ التأثر على الوجوه أكملت إنني سأفارق هذا المكان الذي نهلت منه عــذاب العلــوم، سأفارق هذه الوجوه الطيبة، سأفارق من عشت معهن أربع سنوات بحلوها ومرها .. ثم ردت: اللهم اجمعني بمن أحب في جنات النعيم .. سمعت همساتهن .. اللهم آمين .. اللهم آمين.

عادت إلى المنزل وقد بــدا عليهــا التعــب والألم، ففتــرة الاختبارات مرهقة، ألقت بجسدها المنهك على ســريرها وبــدأت تفيض من مخيلتها سواقي الذكريات، من قريب كنت بين أحضان أُمٍّ حنون .. ودَّعتني ورحلت .. واليوم أودع ثلة مــن صــديقاتي

الطيبات .. ولا أدري أألتقي بهن في هذه الدنيا، وعزائي الوحيد أن تكون الجنة ملتقانا، ويا ترى من سأودع أيضًا ..؟!!

اشتغلت بتجهيزات العرس .. وما يخصها مـــن ملابـــس .. وحلي .. وغيرها .. وما أن تشتري شيئًا إلا وتستشير والدها فيه، فإن أعجبه أخذت به حتى لو لم يعجبها، وكانت تتابع وبلهفة هي وصديقاتها النتائج. وجاء ذلك اليوم الذي ظهرت فيـــه النتيجـــة، وكانت من ضمن المتفوقات زفت هذه البشرى لوالـــدها الحبيـــب وهي تكاد تتطير فرحًا، أخذت تقول والبشر يلعو محياها، أبي لقـــد تحقق الحلم، تساقطت دمعات من مقلتيها وهي تتذكر أمها الحنون، أحست بالعزاء يسري في جسدها، رددت وبدون شـــعور ليتـــك كنت معي يا أمي لتشاطريني فرحتي .. رحمك الله يا أماه.

أوه لا أصدق أنني تخرجت من الجامعة ومع كلماتها الأخـــيرة أصاب الأب غم وحزن تذكر مباشرة ذلك الحادث الذي تســـبب فيه بسبب سرعته الجنونية مما أودى بحياة زوجته الغالية وساق ابنته الحبيبة، حاول كتمان تلك الكآبة فهو لا يريد أن يكدر فرحة ابنته بشيء، لا يريد أن يحزنها، أراد أن يشغلها عنه .. فتصـــنع المـــرح قائلاً: حنان هل أخبرت خالدًا بهذا النبأ السار؟ ومع سماعها لهـــذه الكلمات من أبيها اعتلت وجنتاها حمرة الخجل، وحاولت أن تخفي ابتسامتها ولكنها لم تستطع، فردت باستحياء: كلا يا أبي..

فقال لها بحماس: ماذا تنتظرين .. هيا زفي له البشارة، كلميـــه .. فإنه ينتظر هذا الخبر بفارغ الصبر.

في الجامعة تم تحديد موعد استلام الوثيقة الجامعية وفي نفـــس الوقت تم تحديد موعد الزفات، وزعت بطاقات الدعوة على الأهل والأصحاب ومع اقتراب الموعد هواجس كثيرة تنتاب حنان، وكلما أفضت بهذا الأمر لأحد قالوا لها: أمر طبيعي، إنه شعور كل عروس إذا اقترب موعد زفافها، وقبل الليلة المحددة بيومين، إذ بأبيها يشتد عليه السعال، حاول إخفاء ذلك تعلل بأنه أمر بسيط وسيزول وأن الطبيب قد أعطاه الدواء ولكن هواجس حنان تـــزداد في نفســـها والقلق يكبر في صدرها .. ماذا يا أبي الحبيب؟!!

وفي الليلة التي قبل يوم الزفاف يشتد السعال على والد حنان مما اضطرها لأن تتصل على خالد ليدرك أباها وفعلاً نقل إلى أقرب مستشفى وبعد التحاليل المكثفة والإشعاعات إذا بالطبيب يفاجئهم بقوله بأن حالة الأب الصحية سيئة جدًا ولا بد أن يكـــون تحـــت الملاحظة الشديدة فأدخل في العناية المركزة .. أخفوا على حنـــان هذه الحقيقة المؤلمة.

أما بالنسبة للزواج فقد تأجل بسبب الظروف التي يمر بها والد حنان .. كانت تبكي بحرقة وألم تدعو الله أن يبقى لهـــا والـــدها ويشفيه ويعافيه. الكل يبكي من حولها بصمت ويرثي لحالها فليس لها في الدنيا سواه. مكث أبوها مدة في المستشفى ونفسية حنـــان تزداد سوءًا حتى وثيقة التخرج نسيتها بل إنها تشاجرت مع خالـــد والذي لم يراع مشاعرها وحالتها النفسية التي تمر بها فأسمعها كلامًا جارحًا لاذعًا جعلها تشمئز منه وانقطع هو بدوره عن زيـــارتهم أو حتى – السؤال عن والدها فازدادت نفرة منه.

إنها الآن في أمس الحاجة لمن يقف بجانبها تريد من يواسيها في مصابها، تريد من يخفف عنها آلامها، تتذكر آيات الصبر وتسـلي نفسها بقصص المبتلين تردد على لسانها دائمًا من رضي فله الرضى ومن سخط فله السخط.

كانت تذهب مع أناس من أقاربها لزيارة والـدها المـريض والذي لا يعي من حوله وذات يوم اتصلت عليها إحدى صديقاتها المقربات إلى نفسها وأخذت تحثها على الصبر وعدم التسـخط أو التجزع، واقترحت عليها لو تذهب لأخذ وثيقتها لتحملها معها إلى المستشفى لعل والدها يفيق فتريه ما كان ينتظره (شهادة التخـرج) لعل هذا الأمر يرفع من معنوياته جربي ولا يضرك شيء .. — قالت لها صديقتها – .. وبالفعل استلمت وثيقة التخرج وكانت تحملها معها في كل زيارة .. علَّ والدها يفيق من غيبوبته .. فيكـون أول ما يراه الحلم العظيم الذي كان يتمناه لابنته.

وفي إحدى الزيارات تفاجأت بحركة غريبة في القسم الـذي يرقد فيه والدها .. أناس يدخلون وآخـرون يخرجـون .. أطبـاء وممرضون فدب الخوف والهلع في نفس حنان وتزايدت خفقـات قلبها وإذ بها ترى الوجوم يغطي المكان تساءلت مـاذا بـالأمر؟ لم يجبها أحد .. اتجهت إلى أحد أقاربها الذي خرج من توه من عنـد الطبيب فسألته فلم يجبها أيضًا، وفي هذه الأثناء تقترب منها إحدى قريباتها من كبيرات السن فاحتضنتها برحمة ورأفة وألقـت علـى مسامعها قنبلة دوَّت في أرجاء نفسها المكلومة فتمزق شريان فؤادها المتعطش لجرعات من الأمل .. لم تسمع إلا كلمات تلك العجوز،

بنيتي: أحسن الله عزاءك في والدك .. لقد توفاه الله، تجلدي بالصبر .. لم تدعها تكمل كلماتها فهي تشعر بأن المكان من حولها يهتز بل يتزلزل بركان ثائر في نفسها .. أخذت تتأرجح في مشيتها والعجوز تمسكها وتبكي .. وتذكرها ما للصابرين من أجر.

تساءلت بصوت واهن ضعيف: أحقًا رحلت يا أبي؟!! هـــل ذهبت فعلاً وتركتي وحيدة؟!!! هل لحقت بأمي الحبية؟!! .. لمـــن تركتي يا أبي في هذه الدنيا؟!!

تجهش بالبكاء وتقول: أبي الحبيب رحلت و لم تر وثيقة تخرجي التي طالما حلمت بها .. رحلت أيها الحبيب و لم تنتظر مـــني وفـــاء لجميلك العطر .. رحلت وما زالت كلماتك ونصائحك العذبـــة شهدًا في مسامعي .. لماذا يا أبي لم تنتظر؟!!

لم تدرك ما حولها .. فقد سقطت على الأرض .. وســـقطت معها ورقة سعادتها ونجاحها.

الكل من حولها ما بين باكٍ ومتأثر وحزين أخذوا يرددون: اللـــهم أجرها في مصيبتها وأخلف لها خيرًا منها .. إنا لله وإنا إليه راجعون.

قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»(١).

---

(١) دارت الأيام وتتابعت ليال قصيرة على وفاة والد حنان حتى لحقت به انتبه .. فقد توفاها الله وماتت وهي تعاني وطأة الألم والمرض والوحدة، و لم تنل من هذه الدنيا لا الزوج ولا الوظيفة، وهكذا حال الإنسان في هذه الحياة ما هو فيها إلا كالمسافر أو عابر سبيل ومهما تطاول به العمر فالموت مصيره، والسعيد الفطن من تزود فيها لآخرته دار البقاء وخير زاد التقوى، فرحم الله حنان ووالدها وتغمدهما بواسع رحمته ومغفرته.

(٤) المحنة .. منحة ..

تزوجت وهي في ريعان الصبا، كان يعرف حق الله عليه كم كانت سعيدة بعشها الزوجي الهادئ تحس بأنها ملكة في قصـــرها الصغير، كم حلمت أن يمتلئ هذا العش الهانئ بطيورها الصغار – فلذات الأكباد – فما أجمل عبثهم وما أروع ضجيجهم الطفـــولي. مرت عليها مدة وهي تحلم بهذه الحياة ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَـــاةِ الدُّنْيَا﴾ .. استيقظت من هذه الأحلام والأماني الجميلة علـــى الآلام أحست بها في قدميها .. ألم غريب .. هاتفت والـــدتها وأخبرتهـــا بالأمر استشارت الأم صديقتها الطبيبة وأخبرتها بما تحس به ابنتـــها، فنصحتها بعرضها على استشاريين للتأكد من مرضها، وبعد عرضها عليهم قرروا تنويمها في المستشفى حتى يتم عمل الفحوصات اللازمة لها، بعد إجراء التحاليل تبين أن لديها فيروسًا في نخـــاع العظـــم، اضطرهم هذا الأمر إلى تمديد فترة تنويمها تحت العلاج أسابيع عدة، كان خلالها الألم يزداد عليها، ها هي تتحدث عن نفسها قائلـــة: عندما كان الألم يزداد ويبلغ مداه كنت أصـــرخ بـــأعلى صـــوتي وأتلوى كما تتلوى الحية لما أحس به من طعن الخناجر في عظـــامي لدرجة أن ملابسي كانت والدتي تتولى تمزيقها حين يشتد بي الألم فلم أعد أطيقها أو حتى أطيق خلعها..

تدهورت حالتي حتى عفْتُ كل شيء فقد أصبحت الحياة مرة مرارة كل قطرة من دواءِ أتجرعها، فظهرت آثار المرض ومهاجمته لي

بقعًا بنية تزداد يومًا بعد يوم .. في هذه الفترة العصيبة كان لا بــد من خروجي لأداء اختباراتي النهائية حيث كنت في عام التخـــرج، خرجت وأديت اختباراتي تحت تشجيع والدتي وزوجي وصديقاتي اللاتي وقفن معي في محنتي، وبالفعل اختبرت وعـــاودت الرجـــوع للمستشفى فقد تطور المرض في هذه المرة، واتسعت رقعـــة البقـــع البنية .. لازمت السرير الأبيض فقد كان ينتظرني بدأ العد التنازلي في تدهور حالتي الصحية وقبل ذلك حالتي النفسية .. لدرجة فقدان القدرة على ضبط بعض تصرفاتي فأصبحت أتبول لا إراديًا، وكانت أمي أول يد بيضاء تمتد لتساعدني في محنتي .. كانت تمسح دمعـــتي وتخفف ألم وحدتي .. وهي التي تحتاج إلى من يواســـيها ويخفـــف آلامها .. لا أنسى فضلها علي بعد الله، وأي فضل أعظم من كونها والدتي فهي إن انكمشت آمالي واتسعت آلامي وجدت فيها حضنًا فسيحًا فسحة الأمل .. وما أضيق العيش لولا فســـحة الأمـــل .. وجدت راحة وطمأنينة لا أجدها في أي مكان على وجه هذه الدنيا الصغيرة الحقيرة فقد صغرت في نظري بضآلة مغيراتها وزيف ما فيها .. لقد كانت أمي هي سعادتي .. بل وجنتي حين يضطرم المـــرض نارًا يلهب جسدي والأوجاع تنخر عظمي نخر السوس ..ز إنهـــا كوجه الربيع يهش ويبش لي تكسي الخريف بثياب الأمل والصـــبر والثبات..

كما كان لزوجي دور كبير في متابعة حالتي والوقوف بجانبي، وكذلك صديقاتي اللاتي كن يتناوبن في المكوث معي ومســـاعدتي خاصة في فترة اختباراتي .. كل هؤلاء أحسست بأثرهم ودورهـــم

الكبير في وقت كنت في أمس الحاجة لبصيص أمل .. لقــد غــدا جسدي معملاً لتجارب عدة .. فلم يعد هناك موضعًا لحقنة جديدة إلا وفيه كدمة وأثر وخزها .. يدخل الطبيب ويقرع بيــده علــى عظمي فأصرخ بأعلى صوتي وأستغيث ولكن ما مــن مغيــث .. أتضرع .. وأبكي بتوجع .. أرجوه أن يتركني ولكنه لا يتلفت إلي ثم يلف حول عروقي حبلاً غليظًا، فــأزداد صــراخًا وعــويلاً .. وأستنجد بأمي .. والتي تجهش بالبكاء فلا تملك سوى الدعاء لي .. وأنعم به من سلاح

ثم يدخل حقنة كبيرة ليخرج دمي وأنا أنظر ويتوجه إلى البوابة خارجًا معزيني ببعض العبارات والكلمات التي قد لا أعيها لشدة ما أجده من الألم..

ازداد الأمر من سيئ إلى أسوأ عندما جاءت نتيجة التحاليــل الجديدة بتطور المرض الذي أدى لنقص المناعة فأخضــعني ذلــك لتجرع دفعات وأشكال جديدة من الأدوية .. لقد سلمت أمــري لربي منتظرة النهاية .. النهاية المكتوبة علينا بني آدم..

في اليوم التالي كانت الغرفة تعج بكبار الأطبــاء والطبيبــات المختصين يتحركون في سعي دائب يثير في الدهشة والخوف مــن نتائج هذه الحركة الدؤوب .. لم أنته من هواجسي حتى دخلــت الممرضة تدفع أمامها عرفة اصطفت فيها المحاقن بجميع أحجامهــا وأطوالها المتفاوتة ولاصقات وعقاقير وأوعية للتحاليل .. تدخل بها الممرضة فارغة وتخرج وهي ملأى بالدم .. ووالدتي كعادتها لــيس

بيدها سوى اللجوء إلى الواحد الديان تدعوه أن يزيل هذا الكرب .. وعيناها احمرتا من كثرة البكاء .. وأصابها الوهن، بل والمـــرض لحالتي ولسهرها معي وحقًا لا يحس بذلك إلا من وهبه الله عاطفـــة الأمومة التي تفوق كل العواطف الإنسانية الأخرى .. آه يا أمـــي الحنون أتعبتُك وأنا صغيرة .. وها أنا ذا أتعبك معي وأنا كبيرة متى ترتاحين؟!! ولكن ما بيدي حيلة.

بعد هذه الضوضاء كان آخر ما وعيته حين همست الطبيبـــة لوالدتي قائلة: إن المرض قد تطور وبـــدأت بـــوادر شـــلل تغـــزو الأعصاب .. إذ زاد الألم علي ولم أفق إلا ووالدتي تتأملني وتنظـــر إلي نظرات المودع .. لاحظت انتباهي لها .. فحاولـــت أن تخفـــي مشاعرها قائلة أبشري يا بنيتي فرج الله قريب. لم تنته من عباراتهـــا هذه حتى انفجرت باكية متضرعة برحمة الله الواسعة لقد ضاقت بي الدنيا بما رحبت ..

مرت الأيام .. وأخذت أتأقلم مع المرض وحاولت أن أعيش حياتي طبيعية فقد عدت إلى منزلي وآثار المرض ما زالـــت علـــي وبرغم الذكرى المؤلمة التي كادت تخنقني خاصة بعـــد أن أصـــاب يداي شلل كامل أفقدهما الحراك، سبحان الله من يصدق أن هاتين اليدين كانتا في يوم من الأيام تدب فيهما الحياة واليوم خامدتان لا تتحركان، شهور تتوالى وأيام تنصرم .. وأنا أصبِّر نفســـي وأمـــي تواسيني وزوجي يخفف عني آلامي وأحزاني، حتى جاء ذلك اليوم، يوم المفاجأة حينما جاءت نتيجة آخر التحاليـــل وكنـــت أرجـــع المستشفى بين الحين والآخر فأثبتت التحاليـــل وجـــود جـــنين في

أحشائي وما أن علمت بذلك والدتي حتى خافت على صـــحتي .. وعلى عدم تحملي للحمل ومتاعبه .. خاصة أنني أتعاطي أدوية قوية التأثير فطلبت مني أن أسقطه .. لكني رفضت ورفضت بشدة وحين قال لي بعض الأطباء: من المحتمل أن تكون حياة الجنين مهددة، وإن ولد سيكون مشوهًا من جراء تعاطي أدوية لتقوية المناعة رفعـــت رأسي بثقل لألقي على الجميع أطباء، طبيبات، ممرضـــات، أمــــي، زوجي، ردي الحاسم فقلت بكل ثقة ويقين برحمـــة الله وفضـــله ومنته: لن أسقط جنيني فلقد سلمت أمري إلى الله وليكن ما يكون فلن يضيعني الله.

وعاود الأطباء الكرة تلو الأخرى .. وبالطبع لا بد أن أكون تحت الملاحظة الشديدة .. فتجدد العهد بالتحاليل والمحاقن والفحص الداخلي والخارجي .. إلا أن الأمر في هذه المرة يختلف .. لقد دب بصيص أمل في داخل نفسي الممزقة .. فقد أخبر الطبيب والدتي بأن نتيجة التحاليل هذه المرة محيرة جدًا. فالفيروس بدأ يتناقص وتضعف قوته في عَظْمي وازدادت المناعة شيئًا فشيئًا .. إلى أن حان وقـــت الوضع والولادة .. فقدر الله لي أن أضع مولودي والـــذي كـــان سليمًا معافى .. إن فرحة الانتصار في هذه المرة على المرض كانت لا توصف .. والشعور برحمة الله وكرمه وجوده لي لا توصف أيضًا .. لقد انهمرت الدموع من مقلتي وأنا أمسك طفلـــي [1] .. لقـــد كانت لحظة كدت أطير فيها فرحًا عندما وقف الطبيب مـــذهولاً

(١) لقد عافاها الله من جميع الأمراض حتى الشلل الذي أصاب يديها فما أعظم رحمة الله بعباده.

وهو يمسك بنتيجة التحليل الأخير قائلاً: لقد اكتشفنا أن علاجــك كان في مشيمة الطفل فهو لا يوجد سوى في هذه القطعــة مــن الجسد؟!!

سبحان الله لقد زرع الله العلاج في داخلي .. وهيأه لي تهيأ .. في حين كان الكثير يشير علي بإسقاط جنيني .. فسبحان الكــريم المنان الذي جعل من المحنة منحة .. ومن الشدة والضــيق فرجًــا ومخرجًا .. اهـ [1].



(١) وصلتني هذه القصة من الأخت أم العباس بارك الله فيها ووفقها لما يحب ويرضى.

(٥) دوام الحال من المحال

تسير الأيام عجلى كم هي بالأفراح والأحزان مثخنة. مواقف كثيرة يمر بها الإنسان في هذه الحياة فيستحيل أن تمحوها الذاكرة أو أن ينساها الوجدان لأنها تترك جرحًا غائرًا وأثرًا بليغًا في نفســـه، وحقًا، عجيب أمر هذه الدنيا فكم جرحت وداوت وكم أخـــذت وأبكت وكم أعطت وأضحكت .. ودوام الحال من المحال، ومـــا يواسينا ويعزينا أن هذه الديار ليست بدار بقاء، وأن المؤمن إذا ابتلي فيها وصبر واحتسب فإن الأجر العظيم والثواب الجزيـــل يكـــون حليفه.

كانت تردد هذه الكلمات وتستنطق هذه العبارات وقد علتها الكآبة والحزن وهي تقص لي معاناتها العجيبة وتطوراتها الغريبة وفي هذه الأثناء تملكني العجب والاستغراب لحال هذا الإنسان الـــذي خلقه الله من ماء مهين، ثم يكون جبارًا معتديًا ظالمًـــا في الأرض .. وسبب ذلك هو ضعف الوازع الديني في نفسه، واختفاء الرقيـــب الأعلى من فؤاده وحينها يتحول إلى وحش كاسر يحطم من أمامـــه ولا يبالي .. ينسى أن الله يمهل ولا يهمل فتجده يظلم هذا ويتـــهم هذا بل قد يصل به الأمر إلى أن يسفك دم هذا بغير حق .. التفتُّ إلى زميلتي والتي بدت تسرد لي قصة معاناتها فقالت: كنت زهـــرة يانعة متفتحة يفوح شذاها حبًا ونقاءً وخيرًا وعطـــاء للجميـــع في البيت، في المدرسة، في كل من حولي، فقد كنـــت محبـــة للخـــير

متمسكة بشرائع ديني ناصحة .. أحث هذه وأرشد الأخـــرى .. استمريت على هذه الحال وكنت في تلك الفترة ما زلت في مرحلتي الثانوية إلى أن طرق بابنا خاطب لي كان ذا منصب ومكانة وكان مستقيم الحال. قالوا لي لن تجدي مثله وستعيشين معه في ســـعادة وهناء، إنه من أسرة طيبة، ودخله الشهري ممتاز وه متعلم ومثقـــف إلى غير ذلك من العروض المغرية، اقتنعت وقبلت به و لم أكن أدري ما يخبأه لي قدر الله .. لم أكن أعلم أن هناك مشـــاجرات حـــادة تحصل بني الابن – الزوج – وأبيه وبسببي .. لقد كان أبوه رافضًا لهذا الزواج من أساسه لا لشيء إلا لأنه يريد ابنه لابنة عمه .. وقد أعطى أبوها – أخوه – كلمة، وقال: إن فلانة لفلان .. وابنـــه لا يريدها فهو يعرفها جيدًا .. أخذ يتوسل لأبيه ويوضح له أن هـــذه حياة تخصه ولا بد أن تبني على التوافق والرضى من كلا الطرفين .. وأنه وجد الزوجة الصالحة التي يبحث عنها ويريـــدها .. ووضَّـــح لأبيه أن عائلتنا معروفة بالدين والصلاح .. وهو لا يريد من أبيه إلا شيئًا واحدًا أن يكون معه ويسير أمامه حتى يتم هذا الزواج علـــى خير .. ولكن الأب لم ييأس وهو يحاول إقناع ابنه بالعدول عـــن هذه الفكرة والزواج من ابنة عمه .. وبعد المحاولات المستميتة مـــن الأم وبناها رضخ الأب للأمر الواقع ووافق أن يسير مع ابنه في هذا الموضوع ألا وهو زواجي منه .. بشرط أنه لن يدفع أي شيء ولن يتكفل بشيء .. وافق الجميع على ذلك ..

وفعلاً تم عقد النكاح وما أدراك ما هذا اليوم وما يلفه مـــن خوف ورهبة وفرحة وسعادة تشعر فيه الواحدة بأنها انتقلت مـــن

حال إلى آخر وأصبحت محط أنظار الجميع وأصبحت مسؤولة عن أشياء كثيرة .. ولكن الأمر العجيب هو ما حصل في هــذا اليــوم فبدل أن تكون الوجوه فرحة مستبشرة .. إذ بها حزينة مكفهرة .. يكسوها الكآبة والغم .. ويعلوها الشحوب والضيق .. كثيرًا مــا كنت أسمع عن هذه الليلة وعن مدى الفرحة فيها فما لي لا أجد من ذلك شيئًا، وإذ لم أسعد في ليلة عمري فمتى إذًا؟ هذا مــا كنــت أحدث به نفسي .. بل قد لا تصدقيني إذا قلت لك: إن أبا العريس عندما ناول أبي المهر وعلى الرغم من أنه لم يدفع فيه ريالاً واحدًا .. أتعلمين كيف أعطاه إياه لقد قام برمي المال على الأرض وبطريقــة مزرية جدًا .. جعلت أبي يتفاجأ من هذا التصرف العجيب الحقــير فعل هذا بمرأى من الجميع وقال له بكل جفاء: خذ هذا مهر ابنتك وكان الحضور كثيرًا .. ولكن ولده تدارك الأمر فرفع المال وناوله أبي .. وأبي لا يدري ما الحكاية ولماذا هذه التصرفات مــن هــذا الرجل .. فحملها على محمل حسن.

مرت الأيام وتم تحديد موعد الزفاف .. وبدأت سلسلة لا تنتهي من الإهانات والضغوط النفسية والعبارات التي لا تليق، على الرغم أن أهلي كانوا قمة في الحلم والعفو والتسامح وحسن الظن بهم لأنهم يرون أن الابن – العريس – راغب في .. ومتمسك بي لأقصى الحــدود .. وهم يبحثون عن سعادة ابنتهم حتى وإن كان ذلك على حســابهم .. المهم تم الزواج وطبعًا كانت ليلة زواجي نكد وغم ومشاكل مثلها مثل يوم عقد النكاح .. ومع هذا لم أبال بذلك كله .. سكنت مع أهــل زوجي .. واعتبرتهم أهلي ونسيت كل ما مضى .. وقلت لعل الحــال

الآن يتغير ولكنني كنت أرى العبوس والضجر في وجه أبي زوجي على الرغم أنني كنت أسعى جاهدة لإرضائه .. وتنفيذ طلباته بحذافيرها .. كان يصرخ في وجهي .. ويتلفظ علي بعبارات مخلة ومع هـــذا كلـــه كنت أتقبل كل هذا وأعتبره في منزلة أبي .. و لم أكن أدري أنه يريدني أن أنفر من هذه الحياة وأهرب من هذا الجحيم وأعود إلى بيت أهلي .. لم أتوقعه هكذا وعندما رآني صابرة متحملة ما يصيبني منه أراد أن يوقع بيني وبين أم زوجي – امرأته – فقد كان يقول وبكل وقاحـــة وأنـــا جالسة وهي موجودة .. فلانة لقد عرف ابنك كيف يختار ليس كحالي .. عرف كيف ينتقي الجمال .. و .. و .. وأخذ يكرر هذا الكلام في كل جلسة نجتمع فيها إلى أن سبب ذلك الشحناء والبغضاء بيني وبـــين أم زوجي وبناتها اللواتي كن يكبرنني في السن، فأصبحت أم زوجـــي تكرهني ولا تطيق أن تراني، ما ذنبي لا أدري!!

بل وصل الأمر بوالد زوجي أن حاول التفريق بـــيني وبـــين زوجي أتصدقين أنه كان ينفرد بي ويحثني على عصيان زوجي وأنا لا أستجيب لطلباته، وأن لا أسمح له بالدخول في غـــرفتي إذا أراد ذلك .. كل ذلك لأسباب تافهة .. بل إنه كان يسب ابنه وينسب إليه أمورًا كلها ظلم وزور .. كل ذلك ليسعى في تشتيت بـــيتي .. ولكنني لم أكن أُصغ له أذنًا، و لم أكن أنفذ أوامره ويكفـــيني مـــا حصل بسببه بيني وبين والدة زوجي. مرت الأيام وأنا على هـــذه الحال البائية أتحمل كل ما ألاقيه منهم .. ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا وفرجًا.

مرَّ على زواجي قرابة العام .. و لم ييسر الله لي في خلال هذه الفترة الحمل .. كم كانت فرحة أبي زوجي بذلك وكأنَّ هذا الأمر بيده .. أما أم زوجي فكانت تندب حظ ابنها العاثر وأنـــه قـــد لا يتحقق هذا الأمر ويا لتعاسة – بكرها – بي .. على الرغم أن المدة قصيرة وأنا ما زلت صغيرة فقد تزوجت وأنا ابنة السابعة عشرة .. فلماذا هذا الاستعجال؟ وذات يوم وفي غيبة زوجي عـــن البيـــت استدعاني أبو زوجي .. أقبلت عليه مسرعًا فأنا لم أترك طريقًـــا إلا وسلكته أسعى جاهدة في مرضاته .. همس في أذني كلمات نزلـــت على رأسي كالصاعقة .. قال لي يا بنيتي: الحقي بأهلك .. فأنت لم يتيسر لك الحمل خلال هذه المدة ولعل لذلك حكمـــة فأنـــت لا تصلحين لابني .. اذهبي وسيطلقك ابني وقد ييسر الله لـــك ابـــن الحلال الذي تعيشين معه بكل سعادة .. لقد كانت كلماته هـــذه كالخنجر المسموم الذي غرسه في قلبي .. ماذا فعلت له .. أتـــودد إليه .. أتقرب إليه أتحمل إهاناته وأسلوبه الجاف معي ويقابلني بعد ذلك كله بهذا.

قلت له بعد أن طفح الكيل: إذا كان هذا هو رأي زوجي فأنا على استعداد تام أن أغادر بيتكم وأتوجه إلى أهلي من الآن .. فأنا في طاعة زوجي

دخلت غرفتي وأنا أتجرع المرارة .. أتذكر سوء معاملة أهـــل زوجي ووالده لي .. وتلوح أمام نظري مواقف وحســـن معاملـــة زوجي لي ولا أدري ماذا أفعل؟ هل أتركه وأذهب إلى أهلي .. هل أطلب الطلاق حتى يرتاح أبو زوجي، وأرتاح أنا من هذه المعاناة ..

لم تطل تساؤلاتي كثيرًا .. فقد طلقني زوجي وذلك تحت إلحـــاح أهله وإصرارهم .. بل وصل الحد بوالده أن هدّد الابن بأنـــه إذا لم يطلقني فسوف يطلق زوجته والتي هي أمه، وطبعًا هذه حيلة اتفـــق عليها الأبوان ليتم الطلاق .. وتحقق لهما ما يريدانـــه .. وكـــانوا يردّون على تساؤلات واستفسارات الناس عن سبب طلاقي بأنـــه بسبب عدم قدرتي على الإنجاب .. على الرغم من عدم صحة هذا الإدعاء .. بل إنني لا أنسى ذلك اليوم عندما ذهبت أنا وأم زوجي للفحوصات وسمعت بنفسها كلام الطبيبة والتي قالت: إنه لا يوجد أي سبب يحول دون الحمل والإنجاب وإن الله سبحانه وتعـــالى لم يكتب لها ذلك بعد، ولكن ماذا تقـــولين في عقليـــة الإنســـان إذا تحجَّرت وإذا تحول قلبه إلى صخرة صماء قاسية لا يراعي مشـــاعر وأحاسيس الآخرين .. عدت إلى بيت أهلي بعد رحلة طويلة مـــن المعاناة والإرهاق والهم والحزن .. عدت لعلي أسترد صحتي وعافيتي وقبل ذلك راحة نفسي .. وأي راحة عندما تشعرين أنك مظلومة مقهورة مضطهدة ممن حولك .. مرت الأيام وإذا بي أشعر بـــدوار وآلام غريبة تصيبني .. كنت أقول لعله الأرق وطول السهاد .. لعله كثرة التفكير ولكن الدوار يستمر بل وتصحبه آلام أخرى .. إذن لا بد من الطبيبة وفعلاً تمت الكشوفات والتحاليل وإذ بالمفاجأة التي أدهشت الجميع ألا وهي أنني حامل نعم حامل من يصدق ذلك؟!! أخبرت أمي زوجي بذلك .. دهش بل واشتد فرحه وسعادته فليس لأهله الآن أي عذر، فأرجعني ولكنني اشترطت عليه بيتًا شرعيًا .. وبالفعل حقق لي هذا الشرط .. فعدت زوجة له مـــن جديـــد ..

عدت وأنا أشعر أن ليالي الظلم والهموم والأحزان تبددت وزالت .. وحل بدلاً عنها السعادة والفرح. فأملي بالله كـــبير .. وضـــعت مولودي الأول .. ومن ثم الثاني والثالث .. أما أهل زوجي فإنهم لم يدخلوا بيتي منذ سكنت فيه ولا مرة واحدة .. قاطعوني على الرغم من أننا لم نقاطعهم .. بل إنني وبحسن نية قلت لزوجي .. اذهـــب إلى أبيك واطلب منه العفو والسماح .. وقل له سأفعل ما تريده .. ولكن ماذا تطلب؟! ونفذ زوجي ذلك .. وسأله ماذا تريده وأنفذه لك .. أتدرين ماذا طلب منه قال: لن أرضى عنك إلا إذا تزوجت .. قال: وزوجتي ماذا بها .. إنها امرأة صالحة تخاف الله .. بل هـــي التي أرسلتني لأسعى لرضاك.

أصمَّ الأب عن كلمات ابنه، وقال هذا ما يرضيني عنك .. بل إن زواجك هذا إن تمَّ فإنه سيكون على نفقتي الخاصة .. أنا المتكفل بكل شيء .. فقط حقق لي هذه الأمنية .. عاد إلي زوجي والكآبة تعلو محياه .. سألتُ بلهفة: هل رضي عنك والدك؟ .. فردَّ نعـــم سيرضى عني ولكن بشرط..

بادرته .. ما هو الشرط .. حققه مهما كان..

رمقني بكل أسى: قال شرط والدي أن أتزوج عليك.

مشاعر متعددة تضاربت في نفسي .. أجهشت بالبكاء ..

قلت: ماذا فعلت له حتى يقابلني بكل هذا البغض .. لماذا هو يكرهني؟!!

والمفاجأة أن زوجي حقق أمنية أبيه .. وشجعته أنا على ذلك حتى يرضى عنه، أما أنا فعدت إلى بيت أهلي بعد أن طلقني زوجي الطلقة الثانية لأن زوجته الجديدة اشترطت ذلك .. عدتُ إلى بيت أهلي وقد اعتصر قلبي الحزن والهم والغم لحالي .. فلقد كنت ضحية لجبروت وقسوته ذلك الأب الذي فرق بيني وبين زوجي وأولادي.

مضت الأيام حبلى بالهموم والأحزان .. أردتُ أن أنسى بـــل وأغلق تلك الصفحة السوداء من حياتي .. ولكـــن أنى لي ذلـــك وابناي تلوح صورهم الطفولية والبريئة أمام ناظري .. على الـــرغم أنه من حقي الشرعي أن أضمهم إلي فما زالوا في فترة الحضـــانة .. ولكن ماذا تقولين عن حالة إذا لم يطبق شرع الله .. بالتأكيـــد أن حياته .. تستحيل إلى شقاء وعناء وهمٍّ وغمٍّ .. لقد حرموني مـــن قرة عيني .. وبهجة حياتي .. وسعادة روحي .. حرموني من أبنائي .. ولك أن تتصوري قلب الأم وهو يتقطع حسرة ويتمزق كمـــدًا وحزنًا عليهم، كنت أفكر كثيرًا في حالهم، أتساءل هـــل ينـــامون جيدًا، هل يأكلون جيدًا هل يقسو عليهم أحد .. هل يجدون مـــن يحنّ عليهم .. ويضمهم إليه .. تساؤلات عدة يتـــردد صـــداها في جنبات فؤادي المكلوم .. ولكن صبرٌ جميل .. والله المستعان على ما يصفون .. ذات يوم إذا بالأخبار يتناقلها الناس أن أبا أبنـــائي قـــد طلق زوجته الجديدة ولم يمض على زواجهما سوى عدة أيـــام .. سبحان الله نهاية حتمية لزواج لا يقوم على أساس صحيح، زواج لا يراد من ورائه سوى القهر والظلم والاستبداد في الرأي.

لقد أصبح زوجي بعد ذلك بين نارين .. يريد أن يلمَّ شتات بيته المبعثر .. فيرجعني وأبنائي تحت كنفه ليشعر بالراحة والأمان .. ويريد أن يرضي والده .. إنه محتار بين إرجاعي وبين أهله الـــذين يسعون بشتى الوسائل لإبعاده عني ..

وبالفعل حاول إرجاعي .. ولكن والدي وقف له بالمرصـــاد فبنات الناس ليست لعبة في يديه يعبث بهنَّ كيف شاء .. حاول أن يبرر تلك التصرفات التي صدرت منه بأنها رغمًا عنه .. وأنه مجبورٌ عليها من قبل والده .. إلخ ما قاله .. ولكن والدي لم يلتفـــت إلى مبرراته ومع هذه الضغوط الشديدة والتي كان لها تأثير على نفسيته أودى ذلك إلى سلوكه طريق الانحراف .. كثرت سفرياته للمتعـــة الحرام والعياذ بالله .. خالط رفقة سيئة أعانوه على الشر والفساد .. جرب طرقًا كثيرة لعل ذلك يرفّه عن نفسه ويزيل همه وغمـــه .. استمر على هذه الحياة البعيدة كل البعد عن الله ظنًا منه أن ذلـــك سيخفف عنه .. وسيجد السعادة والراحة، ولكن أي سعادة تلـــك التي يجدها الإنسان في ظل الشيطان .. لقد مـــلَّ حيـــاة الشـــتات والضياع فأراد أن يعيد لنفسه ولبيته الاستقرار والأمان وإن كـــان ذلك رغمًا عن أهله ولكن والدي قطع الأمل في إرجاعي إليـــه .. ولكنه لم ييأس لقد أدخل الوسطاء بيننا .. وبعد محاولات متعـــددة بل ومستميتة .. عدت من جديد ولكن بشروط جديدة .. عدت وعشت معه سنة كاملة وفي تلك الأثناء لاحظت أن زوجي أصبح شخصًا آخر غير الذي أعرفه .. إنسان يفتقد ذاته .. متذبـــذب .. كثير الانطواء على نفسه .. علامات الشرود والذهول تبدو علـــى

محياه .. يكثر من السرحان والتفكير .. أصبح يضيع كـــثيرًا مـــن واجباته الشرعية .. ومما زاد الطين بلة .. وزادت حالـــة زوجـــي النفسية سوءًا أن والده طلَّق أمه بمقابل أن أعادني إلى عصـــمته .. طلقها وترك بيته بلا رجعة .. فقد تزوج بفتاة شابة .. ونسي بيته وأبناءه .. أما ابنه فقد أسقط في يده وخارت قواه وأصابه انهيار من تصرفات والده .. لقد شعرت أنا وهو بوخز الضمير .. فما ذنـــب هذه الأم حتى تقابل بهذا؟!!

لقد رضيت تلك الأم المسكينة بما كتبه الله لها .. بـــل إنهـــا اعترفت بظلمها لي وأنها لم تقف مع الحق .. وأنها كانت ســـببًا في طلاقي وتفريقي عن ابني ولا سبب .. فقالت لي: قد يكون قصاصًا لي يا بنيتي فسامحيني .. أخذت أواسيها وأصبرها وأحثها علـــى أن تلتجئ إلى الله وتتسلح بالدعاء.

أما زوجي فقد كنت آمل من الله أن يصلح حاله .. ويعود إلى رشده فقد تضاعفت عليه المسؤولية .. أردته أن يلتفت لبيته وأبنائه وأهله .. ولكنه لم يكن يبالي .. حاولت إخراجه من تلك الأزمـــة النفسية والترسبات التي خلفها جبروت وظلم والده له .. ولكنني لم أفلح فحالته تسير من سيء إلى أسوأ .. لقد وقع في وحل الرفقـــة السيئة فأصبح زوجًا وأبًا بالاسم فقط .. يدخل ويخرج ولا يبـــالي بشيء .. أصبحت الحياة معه لا تطاق .. لقد انتهى زوجي (إلا أن يتداركه الله برحمة منه) .. انتهى .. وانتهت بذلك حياتي الزوجيـــة معه فعندما يئست من العيش معه طلب الطلاق .. فكانت الطلقـــة الثالثة والأخيرة .. حينها قفلت عائدة إلى بيت أهلي لا أحمل سوى

الذكريات المرَّة والحزينة .. أتذكر كيف كان زوجي علمًا شـــامخًا في بيته .. وعند أهله .. وفي عمله .. وعند كل من يعرفه. وكيف آل به الحال، والسبب هو تسلط وجبروت والده عليه .. فـــإلى الله وحده المشتكى.



(٦) لقد ضيعتني يا أبي ..!!

سعادة ترفرف حولي .. كل شيء أراه جميلاً على الـــرغم أن حالتنا المادية كانت متوسطة، بل أشياء كثيرة كنت أفتقـــدها ولا أستطيع الحصول عليها، ولكن القناعة تبدد كل الآمـــال الواســـعة والأماني العريضة .. كنت أهنأ بكل شيء عندي .. وأحمد الله على نعمه العظيمة .. ويكفي سعادة وهناء أن يعيش الإنسان في كنـــف أبوين وأنعم بها من نعمة .. أبوين يغدقان عليه من فيض حنانهمـــا وعطفهما .. ويزداد الإنسان سعادة وراحة إذا كان متمسكًا بشرع الله يرفل في الخير وينعم بالإيمان إنها الحياة الطيبة .. هكذا كنـــت بفضل الله ومنته .. ولكن والدي لم يكن تعجبه هذه الحيـــاة فقـــد كنت ألمس منه الكآبة الدائمة .. والحـــزن المســـتمر .. والـــتفكير الطويل .. دائمًا يتأفف منحياتنا .. كان يـــتمنى أن يكـــون مـــن رجالات الأعمال المرموقين .. يريد أن يكون كفـــلان صـــاحب الشركة .. أو علانٍ رئيس المؤسسة وعلى الرغم من قناعة أمـــي، فكم نصحته ووجهته لقد كانت كثيرًا ما تردد يا أبا فلان نحـــن في نعمة وخير والحمد لله، يكفي الستر والعافية فكان يتضـــجر مـــن كلامها .. كانت تذكره بقول رسول الله ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط لكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم**» فيتأفف من قناعتها .. يقول لها دائمًـــا ستعيشـــين طوال حياتك هكذا تحبين الفقر .. لم يقف أبي عند هذا الحد فقـــد

أخذ يجمع الأموال من هنا وهناك .. إلى أن تجمعت في يديه ثـــروة هائلة .. وفي الوقت الذي كان يبخل فيه على أسرته بملبس أو طعام من باب الاقتصاد كان يبعثر الأموال الطائلة على زمـــلاء العمـــل وأصحاب رؤوس الأموال وذلك للمصالح المتبادلة كمـــا يـــزعم، وكان لا يتم ذلك إلا في الفنادق أو المطاعم الفـــاخرة لأن منزلنـــا المتواضع ليس أهلاً لمثل هذه الشخصيات البارزة .. لقد تغـــير أبي تمامًا، أصبحت الدنيا والمؤسسات والشركات والعقارات أكبر همه .. أصبح التفاخر والتعالي سمته .. أصبحت المظاهر البراقة الزائفـــة جل اهتمامه .. غفل أن هذه الحياة زائلة وأن متاعها فانٍ .. كـــم ذكرته بذلك .. كم خوفته من الموت .. ولكنه كان يعـــرض ولا يتعظ، تزوج بأخرى وبالطبع كانت قريبة لإحـــدى الأثريـــاء .. أسكنها في قصر فخم وأثاث وثير ولديها الخدم والحشم .. بينمـــا نحن لا نجد أحيانًا لقمة العيش فقد تركنا ورحل ..ونسي أو تناسى أنه خلّف وراءه زوجة مريضة .. وأبناء يتضورون جوعًا .. لقـــد ترك أمي التي صبرت عليه وتحملته وعاشت معه على القناعة والرضا والكفاف .. تركها وهي تقاسي الآلام والأمـــراض قـــائلاً لهـــا: سأتركك مع الفقر الذي تحبين .. تقطّع قلب أمي أسى وحزنًا على هذا الإنسان الذي أعطته كل شيء .. وبذلت من أجله الكثير .. لم يطلقها ولكنه هجرها وترك أبناءها وعاش مع تلك الأخـــرى .. لم يكلف نفسه أن ينفق على أهل بيته أو أبنائه، بل أصبحنا نســـتقبل الصدقات والإعانات من الناس .. والناس يتهامسون هذه عائلـــة فلان الثري ويشيرون إلينا: انظروا كيف حالهم!!

استمر هذا الحال إلى أن تخرجت من المرحلة الثانوية .. وذات يوم إذ بطارق على بابنا وكانت المفاجأة عندما تصـــارخ إخـــوتي الصغار أبي .. أبي، لم أصدق عيني وأنا أراه .. إنه فعلاً هو .. إنـــه أبي .. ما الذي جاء به .. كان يحمل بين يديـــه الهـــدايا والعـــب والحلوى والملابس .. قلت في نفسي لعـــل الله هـــداه .. عمّـــت السعادة قلبي .. واستبشرت خيرًا جلس معي ومع أمي وأخذ يعتذر عن كل ما بدر منه، وأنه أحس بغلطته في حقنا .. وأنه ســـيعوض تلك الأيام السالفة .. إلخ ما قاله.

ثم بعد ذلك لمحني وابتسم وهو يقول: يا بنيتي ما شاء الله عليك كبرت وأصبحت عروسة جميلة .. متى أفرح بك .. فهمت أمـــي مغزاه .. فقامت من المجلس .. استغل هو الفرصة فقال لي: اسمعي يا بنيتي ستودعين حياة الفقر والعوز والحاجة .. هناك شاب ذو خلق ودين ومن عائلة ثرية جدًا .. بل إنه يملك العقارات والشـــركات سيلبي لك كل طلباتك .. سترفلين في الخير والنعيم .. لا أريـــد إلا موافقتك .. دبَّ في نفسي الحزن والغم على حال والدي .. إنه لم يتبدل .. لم يتغير فيه شيء .. إنه هو كما تركنا .. ما زال حـــب الدنيا يجري في عروقه.

قلت له: ألهذا الأمر جئتنا؟!!

قال: لا .. لقد اشتقت إليكم .. وأنا يا ابـــنتي لا أريـــد إلا مصلحتك .. صدقيني .. إنها فرصة ثمينة لن تتكرر .. لا تضـــيعيها عليك..

قلت له بلهجة حازمة: مصلحتي هي أمي وإخوتي الصغار .. كيف سيعيشون وأنت متخلي عنهم .. حتى المصروف والنفقـــة لا تعطيهم .. كيف سيكون حالهم؟ أخشى عليهم من الضياع .. هذا ما يشغل بالي ويملأ تفكيري .. أما الزواج فإنني لا أفكر فيه الآن ..

قال: لا عليك أعدك بأن أمك وإخوتك سيعيشـــون معـــي وسأغدق عليهم بكل ما تشتهيه أنفسهم ولكـــن فكـــري الآن في نفسك، سيحضر العريس غدًا وسيأتي مأذون الأنكحة والشـــهود وسيتم كل شيء لم يمهلني لأتكلم لأرفض ليكون لي رأي. سلمت أمري إلى خالقي قلت: لعل زواجي هذا يخفف عن أمي وإخـــوتي. لعل الله يفرج عنهم. وفعلاً جاء غدًا بما يحمله من مخاوف ورهبة. لم أر العريس فقد خرج مسرعًا بعد أن تم عقد النكاح بحجـــة أنـــه مشغول ولكثرة ارتباطاته. وحدد أبي موعد الزفاف، لم أوافق على هذا الزواج حتى نفذ أبي وعده لي في ضم أمي وإخوتي إليه ..وفعلاً أسكنهم في بيت لا بأس به بالقرب من قصره الفخم وأصبح ينفق عليهم. جاء يوم الزفاف وعندما أرد العريس الدخول علي ليأخذني إلى عش الزوجية كانت الصاعقة التي جعلتني أجهش بالبكاء بـــل أنهار فذلك الشاب الممتلئ فتوة وحيوية ونشاطًا لم يكن إلا رجـــلاً مسنًا يتوكأ على عصاه .. رجلاً في السبعين من العمر ولكـــم أن تتصوروا كيف يتم التوافق بين فتاة غضة تبلغ من العمر تسع عشرة سنة مع إنسان في سن أجدادها.

رفضت أن أذهب معه أو أن أسير خطوة واحـــدة أخـــذت أصرخ لقد خدعتني يا أبي لن أسامحك كيف هنت عليك إلى هـــذا

الحد تبيعني بهذه السهولة ولأجل حفنة من دنيا .. تقتل في الحيوية والنشاط لأجل مطامع نفسك. هل تريد أن تقضي علـــى زهـــرة عمري وأن تذبل ريحانة شبابي مع رجل كهذا هل تريد أن تـــدفنني حية مع إنسان بلغ من العمر عتيًّا ..؟!! ألا تتقي الله في ألا تخـــاف عقابه، لم أشعر إلا وأبي ينهال علي ضربًا وسبًا وشتمًا .. يقـــول: فضحتِنِي .. أتريدين أن تجعليني في موقف حرج يا حمقاء هذا رجل ثري جدًا لن تجدي مثله سترثين من ورائه الأموال الطائلة ستعيشين معه في سعادة أنت لا تعرفين مصلحة نفسك .. ثم إن بيني وبينـــه مصالح مشتركة إنك بتصرفك هذا تفسدين علي كـــل شـــيء .. وعندما رأى والدي رفضي الشديد لهذا الزواج .. هددني بلهجـــة حادة وصارمة قائلاً: إذا لم تذهبي مع زوجـــك ســـأطرد أمـــك وإخوتك إلى قارعة الطريق .. ولن يجدوا لهم مسكنًا أو مأوى لأنني قد تصرفت في البيت القديم وستكونين أنت السبب في ذلـــك .. حينها أسقط في يدي .. عرفت أنه لا فائدة من احتجاجاتي ولـــن يلتفت أحد إلى اعتراضاتي .. رمقت أبي بعينين حزينتين وقلت له: لقد ضيعتني يا أبي، لقد ذبحتني بغير سكين .. كيف تلقى الله؟!! ما موقفك يوم القصاص عندما أقف أنا وأنت بين يدي الجبار .. لقد ظلمتني يا أبي وظلمت عائلتك معي.

واستني أمي قائلة: بنيتي لا تقبلي بهذا العرض الـــرخيص ولا تدفني نفسك مع هذا الإنسان لا عليك من تهديدات أبيك سنتحمل العناء فقد اعتدنا عليه. ولنا الله لن يتخلى عنا وأهل الخير والأيادي البيضاء كثيرون ولن يقصروا معنا.

قلت لها: أمي يكفيك ما عانيته أنت وإخوتي، أما أنا فلـــيس أمامي سوى الصبر واللجوء إلى الله ولن يضيعني .. فقط أريدك أن تدعي الله لي .. بكت أمي وهي تفوض أمرها إلى الله احتضـــنتني بكل شفقة ورحمة وهي تقول: كان الله في عونك يا بنيتي، كـــوني مع الله يكن معك، ولعله يحدث لك بعد ذلك فرجًا ومخرجًا.

عشت مع هذا الإنسان ولا مجال للتوافق بـــيني وبينـــه في أي شيء .. إذا أراد الاقتراب مني اشمئززت .. أرمقه بعيني أتساءل هل هذا هو الزوج الذي كنت أحلم به؟!!

كنت أتمنى شخصًا يفهمني وأفهمه .. إنسان يعينني على الخير .. يرشدني إلى الصلاح .. فلم أجد من ذلك شيئًا .. هذا نصـــيبي والحمد لله على كل حال، لا أدري كيف رضي لنفسه بزوجة تُعد في عداد حفيداته؟!! كان دائمًا يشتمني ويسبني وأنا صـــامتة بـــل ويضربني بعصاه ويحقرني، بل وصل به الأمر إلى أن يشك بي حـــتى أصبح يحبسني، وإذا أراد الخروج من منزله أغلق علي الباب بالمفاتيح والأقفال ..ولا أدري هل يظن أنني سأهرب وليت الأمر اقتصر على هذا الحد، بل كان إنسانًا شحيحًا بخيلاً مثله مثل والدي تمامًا كان سيء الخلق .. يتهاون في طاعته لربه .. لا يبحث إلا عن شهوات نفسه، أقول سبحان الله إنسان في هذا العمر وأقرانه وأصحابه قـــد وارهم التراب وغيّبهم الموت ومع هذا لا يتعظ.

حاولت أن أتعايش مع هذه الحياة المريرة الكئيبة ولكـــنني لم أستطع، من يراني من شدة الغموم والأحزان يظـــنني عجـــوزًا في الستين ولا يصدق أنني فتاة العشرين ربيعًا.

أصبحت حياتي كلها خريفًا بل جحيمًا لا يطاق، لقد ضاقت علي الأرض بما رحبت، النوم فارق جفوني، وشهيتي انعدمت مــن كل شيء، تكالبت علي الأمراض من كل حدب وصوب .. كنت أرفع أكف الضراعة إلى الواحد الديان أن يكشف عني هذا البلاء .. ويزيل عني هذا العناء .. تجرعــت المأســاة والألم .. والغصــص والأحزان .. طالما رددت: لقد ضيعتني يا أبي .. هذا ما جنته يداك، لقد ملكت ما أردت من الدنيا ولكن كان ذلك على حساب فلذة كبدك وأبنائك .. أبي لقد ضيعت الأمانة .. ألا تتقي الله فينا إن الله سائلك عنا وعن رعيتك فماذا سيكون جوابك غــدًا وأنــت لم تتحمل المسؤولية و لم ترعَ الأمانة؟!! اهــ.

يقول رسول الله ﷺ: «**إن الله سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيّع؟!! حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**».

* * * *

(٧) أسماء .. وذات النطاقين

«أسماء» تلك الطفلة الوديعة الهادئة بما تحمله هذه الكلمة ترى من خلف عينيها خجلاً يستحيل جمالاً ورقة ومن علـــى شـــفتيها ابتسامة عذبة تحيط من حولها حبًا وتضحية تتطلع إلى الحياة مثلـــها مثل غيرها من الفتيات تنظر إلى الوجود ببسمة وبهجة تضحك مع قريناتها تلعب وتمرح في المدرسة كانت محبوبة من معلماتها زميلاتها، وفي البيت تحتل المكانة والمنزلة في قلوب الجميع تتصـــف بالرزانـــة والنضج رغم صغر سنها طموحاتها أكبر من عمرها .. تلاحقـــت أيام أسماء إلى أن اجتازت مرحلتها الابتدائية وبدأت باستقبال فترة الطيش والمراهقة، ولكن أسماء لم تكن من هذا الصنف من الفتيات بينما أخواتها ممن هي هو أكبر منها يلححْنَ على أمهـــن بشـــراء الجديد بل الغالي من الأقمشة والملابس والمستلزمات .. كانت أسماء تأبى على أمها أن تتكلف أو تشتري لها شيئًا .. وإذا ألحت أمهـــا عليها في ذلك قالت: لماذا أشتري الجديد وما لدي يكفيني والحمد لله قناعة ورضًا عجيبين .. قلَّ ما نجده في الكبار فضلاً عن الصغار .. ذات يوم ذهبت أسماء إلى معلمتها ندى – معلمة العلوم الشرعية – تعرض عليها موضوعًا علّها تلقيـــه في الإذاعـــة المدرســـية .. فشجعتها تلك المعلمة الفاضلة والمربية الناجحة فهي مَنْ أعدهن لهذه المواقف .. ورددت بينها وبين نفسها بارك الله فيك يا أسماء وكثر من أمثالك .. يعزّ من يوجد مثلك في هذا الزمان العصيب .. إنـــه

المنبت الحسن .. والتربية القويمة .. رعاك الله يا بنيتي ..وحفظـــك من كل مكروه.

في اليوم التالي كانت طوابير الطالبات قد اصطفت وأخـــذت أماكنها، خيم الهدوء على المكان ووقفت أسماء ممسكة زمام أوراقها وبدأت حديثها والذي كان مؤثرًا إلى حد البكاء فقد استعرضـــت الموت وسكراته .. والرحيل وعبراته .. استعرضـــت التفـــريط في جنب الله وختمت قولها بحديث: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» تأثر الجميع طالبات معلمـــات جميع من في المدرسة أخفت معلمتها ندى دمعـــات تجمعـــت في مقلتيها وشكرتها على هذه الموعظة البليغة المؤثرة.

هكذا كانت أسماء مكافحة، خلوقة، نشيطة بل ينبوع صـــغير متدفق بالخير والعطاء لكل من حولها، معروفة بالتسامح والتعـــاون للجميع لها همة تعانق عنان السماء، نموذج لفتاة صالحة تقية في عمر الزهور، بينما نلتفت لنرى نماذج أخرى يندى لها الجبين لـــبراعم لا هم لهم إلا التوافه .. أفلام الكرتون، القصص الخيالية، الروايـــات التافهة، وغير ذلك من سلسلة الخرافات والتي امتلأت بـــه أذهـــان أبنائنا ولا تربي إلا أطفالاً خياليين ليس لهم هدف ولا غاية.

في نهاية السنة الدراسية أطلت علينا أسماء بوجهها الطفـــولي وثغرها الباسم وهي تحمل شهادة تفوقها ومعها شهادة شكر وتقدير زفتها لها معلمتها اعترافًا منها بجهودها الطيبة في المدرسة.

كانت فرحة الأهل غامرة بنجاح أسماء وإخوتهـــا .. ولكـــن فرحة أسماء كانت أعظم عندما سمعت بهدية النجاح .. عمـــرة إلى مكة .. كم كانت تحلم بالبيت الحرام، تتخيله تشتاق إليه بـــل لم يهدأ لها بال إلا وتسأل عن طريقة العمرة وما يلزمها فيها وما ينبغي عليها .. بل وتقرأ وتبحث.

حان موعد السفر .. والضحكات الطفولية تنطلق منـــها في الأجواء .. الأرض من تحتها تهتز طربًا والسعادة تلفها مـــن كـــل جانب ساقت أمام ناظريها مناظر الحرام .. الكعبـــة .. الصـــفا .. المروة .. الحجر الأسود .. لقد هيأت نفســـها لهـــذا الســـفر .. واستعدت لهذه الرحلة المباركة و لم تدر الصغيرة أنها على موعد مع السفر النهائي لرحلة ثمنها عمرها .. فقد لفظت أنفاسها الأخـــيرة تحت ركام سيارتهم المحطمة إثر حادث مفجع حصل لهـــم أثنـــاء عودتهم من العمرة .. نجى من هذا الموت المحقق جميع أفراد الأسرة مع تنوع واختلاف في إصابتهم .. ما عدا أسماء فقد فاضت روحها الطيبة وودعت الدنيا بما فيها من صخب وضجيج وملاهٍ وفـــتن .. رحلت أسماء وخلفت وراءها قلوبًا مفعمة بالحزن والكآبـــة علـــى ينبوع صغير متدفق بالخير والعطاء قد جف ونضـــب .. وبعـــد أن واروا الجسد الطري في التراب بحثوا عما خلفته وراءها فما وجدوا إلا بعضًا من ملابسها البسيطة وحقيبة مدرستها ودفاترها الممتلئـــة بالواجبات القديمة ومجموعة من أوراق ضمتها سويًا وقد جمعت فيها أنواع الفوائد والعبر والحكايات والقصص وجعلتها على هيئة مجلـــة إسلامية، أضفت عليها بعض الأشكال الجميلة الرائعة كانت تنتظر

قدوم السنة الدراسية الجديدة لتريها معلمتها ندى .. وليـــتم بعـــد ذلك تصويرها وتوزيعها على الطالبات .. ولكن الموت لم يمهلـــها لتحقيق ذلك .. من مثل همة أسماء .. وأين تجد فتاة تفكـــر مثـــل تفكيرها وفي مثل سنها؟!!

مع بداية العام الدراسي الجديد استقبل فيه صديقاتها المدرســـة .. ولكن أسماء لم تحضر لقد تأخرت كثيرًا .. فسأل عنها الجميـــع ومن بينهن معلمتها ندى .. اتصلن على منزلها .. وإذ بالخبر المفجع الحزين والذي نزل على رؤوسهم كالصاعقة .. أسمـــاء .. أسمـــاء ماتت .. ارتجت المدرسة بمن فيها لهذا الخبر الحزين بكت زهرة يانعة كانت مفعمة بالنشاط والحيوية .. وزاد بكاؤهم عندما رأوا خـــط أسماء وعباراتها العذبة .. والتي صاغتها في مجلتها (ذات النطاقين) .. وما كان من معلمتها إلا أن قامت بتصويرها وتوزيعها فأكملـــت بذلك مشوار أسماء الذي بدأته .. وتحقق لأسماء ما كانت تتمنى .. رحلت أسماء وبقيت آثارها والتي لن تمحوها معايير الزمن .. رحلت الصغيرة بعدما سكبت ما في جعبتها من نصائح وتوجيهات وذلك في ردهات الفصول والممرات .. رحلت يا أسماء وما زالت ذكراك العطرة يفوح شذاها في كل مكان.

يقول رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظـــل إلا ظله ومنهم شاب نشأ في طاعة الله**».

(٨) قلوب من حجر

كان مريولها باليًا وفيه بعض الشقوق يبدو أنه نفس مريـــول العام، إنه ملفت للانتباه والعجيب أن أخواتها من أبيهـــا معهـــا في نفس المدرسة ولكنهن على خلاف ذلك تمامًا. المريـــول جديـــد، والحقيبة غالية، بل حتى رابطات الشعر من أفخر الأنواع.

كانت فاطمة تبدو هزيلة خائفة مذعورة يكسو وجهها الكآبة والحزن بينما أخواتها يضحكن ملء أفواههن يشترين ما لذ وطـــاب يسرن بزهو وخيلاء .. شعرت أن في الأمـــر شـــيئًا .. ذات يـــوم وكانت بدايات الشتاء لم يكن على الفتاة أي ملابس تقيها البرد ما عدا ذلك المريول الممزق، وإذا بها ترتعش كعصـــفور يحتضـــر .. استدعيتها .. سألتها: لماذا لم تلبس معطفًا يقيك البرد .. أو حـــتى ملابس داخلية .. ألا تشعرين بالبرد؟!!

ردت بعينين زائغتين .. وعبارات مقطعة .. معلمتي .. لـــيس عندي معطف أو حتى ملابس داخلية.

سألت الفتاة أين أمك يا فاطمة نظرت إلي باستغراب .. ماذا أمي؟!!

نعم أمك يا عزيزتي .. امتلأت عيناها بدمعات حارة حاولت إخفاءها وتمتمت .. أمي يا أستاذة ليست معنا .. أصابتني غصة في حلقي قلت لها .. لماذا يا بنيتي .. أين هي؟!!

قالت: إنها مطلقة .. طلقها أبي منذ زمن.

قلت: وهل تسكنين مع والدك وزوجته؟!!

أجابت: نعم.

حسنًا .. كيف زوجة أبيك معك؟!!

سرت رعشة غريبة في جسدها الواهن عندما طرحت هـــذا السؤال وانقلب وجهها وكأنها لا تريدني أن أتحدث عن زوجة أبيها أو آتي بسيرتها.

استكملت قائلة .. فاطمة هل زوجة أبيك تقسو عليك؟!

هزت رأسها بالإيجاب

هل تضربك؟!! قلت: آيه يا معلمتي .. ليت الأمر يقتصر على ذلك إنها تضربني وتحرمني من الأكل حتى الملابس تشتري لبناتها، أما أنا فلا .. لا تجعلني إلا أكنس وأنظف وأغسل بل تجعلني أغسل حتى ملابس بناتها.

اقشعر جلدي من كلماتها .. إلى هذا الحـــد وصـــل الظلـــم والطغيان ببعض البشر، لا حول ولا قوة إلا بالله!

أكملتُ .. ووالدك هل يعلم بهذا الأمر؟!!

قالت: نعم بل ويشجعها .. أبي يكرهني .. يقول لي دائمًـــا إنك ستكونين مثل أمك في كل شيء .. بل إنه يضربني إذا اشتكت له زوجته مني.

فاطمة هل تعصين زوجة أبيك؟!!

ردت بكل حماس: أبدًا والله .. فأنا أخاف منـــها ..ولكنـــها أحيانًا تكذب علي وتقول لأبي إنني فعلت وفعلت، وأنا لم أفعله به حتى بناتها إذا رأوني أذاكر دروسي بعد انتهائي من أشـــغالي الـــتي أمرتني بها زوجة أبي يحاولن إشغالي فإذا لم ألتفت إليهن يـــذهبن إلى أمهن ويشكينني ويقلنْ: إنني أعيرهن بالفشل .. وأصفهن بالغباء .. والله كله كذب وبهتان وهي بدورها تأتي وتضربني بـــل لا أنســـى ذلك اليوم وكان علي اختبار نهائي كنت أذاكر دروسي وبســـبب وشاية بناتها جاءت إلي ثائرة وسحبت الكتاب من بين يـــدي بـــل ومزقته أمامي .. لم أتمالك نفسي من البكاء .. تذكرت أمي الحنون والتي حرموها مني .. ولأن أبي يكرهها صب جم حقده وكرهـــه علي لأنني ابنتها وأشبهها كثيرًا.

فأنا لا أنسى عندما كنت في السادسة من العمر كان يرسلني في ساعات متأخرة من الليل لأشتري لهم الحاجات .. كنت أجهش بالبكاء لشدة الخوف .. أتوسل إلى أبي أن يعفيني من ذلك فكـــان يجبرني على الخروج ولا يرق قلبه لحالي .. كم مرة تعرضت للدهس من قبل السيارات .. كم مرة كدت أضيع .. كم .. كم .. وكم .. قلبي ممتلئ بالجراح والأحزان والآلام .. ألا يكفي بُعد أمي عني .. ألا يكفي هذه الحياة المريرة التي أعيشها في كنف أب لا تعرف الرحمة إلى قلبه طريقًا .. وامرأة أب لا تخاف الله ولا تتقيه.

والله يا معلمتي إنني أعاني القسوة .. ولا أستطيع التفوه بكلمة أو أطلب منهم شيئًا لأن مصيري سيكون الحبس في غرفة سفلية من البيت الموحش ليس هذا فحسب، بل والضرب.

– لقد تقطع قلبي وأنا أسمع مأساها واعتصر فؤادي حزنًا لحالها .. أتساءل: كيف أن فتاة تمكث بيننا تعاني كل هذا ولا أحد يشعر بها .. كان الله في عونك يا صغيرتي .. كيف تحملت كل هـــذا؟!! حينها صبَّرتها .. ونصحتها أن تلتجئ إلى خالقها ووعدتها خيرًا .. اشتريت لها بعض الملابس الداخلية .. ومعطفًا .. وحقيبة جديدة .. وحذاء ودفاتر وبعض المستلزمات الأخرى .. وغلَّفتها على شـــكل هدية وقدمتها لها، وقلت لها: لك مطلق الحريـــة في الشـــراء مـــن مقصف المدرسة باسمي ولا عليك من الحساب .. أحسست أن هذه الأمور بسيطة بالنسبة لفتاة غضة عانت ما عانته .. ولاقت المـــرارة ولعل الله يحدث بعد ذلك فرجًا ومخرجًا .. كم كانت فرحة فاطمة بهذه الأشياء البسيطة والتي طالما حُرمت منها، وفي اليـــوم التـــالي أتفاجأ بالصغيرة وقد أتت حزينة .. والدموع تملأ مقلتيها .. قالت لي: لقد رأى أبي وزوجته تلك الهدايا التي أهـــديتيها لي .. فجـــنَّ جنونهم .. وسحبوها مني بل وألقوها في سلة المهملات .. ثم انكبوا علي ضربًا وشتمًا وهددني أبي بأنني لو أخذت مثل هذه الأشياء مرة أخرى فسيطردني من البيت .. اضطررت في هذه الحالـــة إبـــلاغ الإخصائية الاجتماعية بهذا الأمر لعل يكون لها دور في نصح الأب وزوجته .. ولعلنا نخفف عن الفتاة قليلاً، وبالفعل بـــذلنا جهـــودًا مضنية كي نصلح من هذا الأمر .. ولكن عقلية الأب المتحجـــرة

..وزوجته المتعنتة حالت دون ذلك .. سعينا جاهدين أن نتحـــدث مع زوجة الأب .. أن نخوفها بالله .. أن .. أن، ولكن كل محاولاتنا باءت بالفشل .. فاضطررنا إلى تخصيص ملابس شـــتوية للفتـــاة وجعلها في المدرسة تلبسها إذا حضرت إلى المدرسة .. خاصة بعـــد اشتداد البرد وأصبح قارسًا لا يطاق ولا يحتمل – وتخلعها إذا كانت ستعود البيت .. وحقيقة كنت بين الحين والآخر أفكر كيـــف أن الأب نبع العطف والحنان والرحمة والشفقة يكون بهـــذه القســـوة والشدة .. ولكن فعلاً إذا اختفى الوازع الديني عن العبد وغفل عن مراقبة علاّم الغيوب له .. فإنه يفعل أشد من ذلك .. لم ينته الأمر هنا .. بل جاءت فاطمة في إحدى الأيام باكية متألمة ورفضـــت أن تلبس الملابس التي خصصناها لها .. سألتها: ماذا بك يا فاطمـــة؟!! هل حدث شيء؟

قالت: أرجوك يا معلمتي لقد أتعبتك معي .. ولاقيـــت مـــن أجلي الكثير وبصراحة من اليوم وصاعدًا لن ألبس شيئًا؟!!

تعجبت منها وقلت لها: لماذا ما السبب؟!!

وبعد محاولات شتى أخبرتني بالسبب وهو أن أخواتها من أبيها رأينها وهي تلبس هذه الملابس الشتوية في المدرسة، فأخبرن والدتهن .. والتي هي بدورها نقلت الأمر إلى زوجهـــا – أبـــو فاطمـــة – وبالطبع كان مصيرها الضرب والحبس كالمعتاد والتهديد والوعيـــد .. حينها توجهت إلى الحي القيوم داعية أن يرأف بالصـــغيرة وأن يكشف عنها هذا الظلم والضر وعجبًا أي قلوب هذه التي تستحيل

أقسى من الحجر .. ألا يخشون أن يحل عليهم سخط الله وعقابه .. ألا يخافون الله الذي يمهل ولا يهمل ..؟!!

كان الله في عونك يا فاطمة .. وألهمـــك الصـــبر والثبـــات ..وأصلح لك أباك وزوجه .. [(١)].

* * * *

(١) حدثتني بهذه القصة إحدى الأخوات الثقات إن شاء الله.

(٩) عودة وإنابة

زخات من الآلام والهموم تمطر بوابلها على تلــك الأســرة المسكينة مما جعلها تعيش في متاهات طويلة مع شروق شمس كــل يوم .. ها هي شلالات الحزن تداهم ذلك البيت الصغير الكئيــب ومما زاد حزهم وكآبتهم سقوط رب الأسرة وعمادها مغشيًا عليه كان ذلك ليلة البارحة .. فالمرض يزداد عليه يومًا بعد يوم .. بات الكل في حزن وألم ليس بيدهم سوى الدموع واللجوء إلى الله كل ذلك نتيجة لعقوق وطيش قد تأصل في بكرهم أحمد، فقــد ملــوا وسئموا من تصرفاته الهوجاء وقساوة قلبه رغم توصــيات والدتــه وتوجيهاهما بل ودموعها .. خوفته بالله حذرته من مغبة فعله هــذا، ولكنه في كل مرة يقابل كلماهما بصلف وعناد ولا مبالاة .. حذره والده ووجهه بل وأغلظ عليه حرمه من أشياء كثيرة لعله يثوب إلى رشده ولكن لا جدوى من ذلك كله ازدادت حالة أحمــد ســوءًا والأسوأ من ذلك إخفاقه في دراسته واستهتاره بطاعة ربه وسخريته حتى من والديه، رثى الجميع لحاله وبذل الأقــارب ومــن حولــه قصارى جهدهم في نصحه وإرشاده فهم يعلمون مدى منزلة أحمد عند والديه ولكن جميع محاولاهم باءت بالفشل.

زارهم يومًا إمام المسجد وأخذ يصبر والد أحمد ودعا لابنــه بالهداية بعد الضلال والطاعة بعد المعصية والإنابة والتوبة بعد الغفلة والضياع .. بكى الوالد وقال: ليته كان مطيعًا وبارًا فأنا لا أضمن

عمري فإذا رحلت من سيكون عونًا لأمه وأختيه .. بل ليته يموت وأرتاح ويرتاح غيري من شره وأذاه، كم كنت أتمنى أن يكون علمًا شامخًا في الخير .. كنت أتمنى أن يكون داعية صالحًا أو إمامًا مسجد أو مجاهدًا في سبيل الله .. ثم أجهش بالبكاء مرة أخرى فبكى معه الإمام أسى وحرقة لشاب من شباب المسلمين يسلك طريق الضلال وينحرف عن جادة الصواب حدَّث نفسه هذا ما يريده أعداء الإسلام ويسعون جاهدين لأجله كم يسعدهم أن يروا شباب هذه الأمة تائهين ضائعين ضالين لا هدف لهم ولا غاية .. توجه الإمام إلى الأب حاثًا له على الصبر والثبات وأن يدعو لابنه بالهداية والصلاح.

توالت الأيام العصيبة واللحظات المريرة على أسرة أحمد فهو أملهم المنشود بعدالله وأحمد ما زال على حاله يأتي ليأكل ويشرب وينام ويأخذ ما بدا له من نقود ثم يولي خارجًا تاركًا خلفه أبًا حزينًا مريضًا وأمًا تجرعت الهموم من تصرفات ابنها.

يخرج ليعبث بتلك النقود كيف شاء وهكذا.

لقد تبلد حسه وغطت الغفلة قلبه، لقد أصبح كالصخرة الصماء التي لا تؤثر فيها المواعظ ولا الدموع ولا التوسلات التي تنهال عليه من والديه.

ذات يوم وكان يوم جمعة خرج أحمد مبكرًا مع أصدقائه وكعادته فهو لا يعرف لهذا اليوم حرمة ولا فضلاً .. لا يبالي بصلاة ولا صيام ولا عبادة خرج مع رفقة السوء وبعد انتهاء الخطبة

والصلاة أراد العودة إلى البيت ليأخذ نقودًا ويكمل بها بقية يومـــه، اقترب من المنزل وإذ به يرى والده وقد ارتسمت على محياه ســـيما الوقار والإجلال وروحانية الصلاة.

أما أحمد فقد كان مكفهر الوجه مقطب الجبين تكاد الشرارة تخرج من عينيه، يكسو وجهه الكآبة والظلمة والوحشة قد أصـــبح قلبه أقسى من الحجر وقف في وجه أبيه قائلاً له: أعطـــني نقـــودًا وبسرعة فأصدقائي في انتظاري هيا بسرعة.

تنهد الأب وقد تمالك أعصابه فهما في الشارع .. قـــال لـــه متسائلاً: هل صليت الجمعة يا أحمد؟

صرخ أحمد في وجه أبيه: أقول لك أعطني نقودًا، وتقول هل صليت الجمعة .. ما هذا التخلف .. يبدو أن كبر سنك قد أثر فيك وفي سمعك.

قال الأب بانفعال: اغرب عن وجهي أيها العاق .. الفاســـد، اذهب لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى سأدعو الله عليك .. اذهب لا بارك الله في ابن مثلك .. وبينما الأب يتكلم ويصرخ وقد تجمع الناس والجيران يحاولون تهدئة الأب فهو ما زال يعاني وطأة المـــرض إذ بأحمد تأخذه العزة بالإثم فينسى نفسه .. وينسى من حوله .. بل وينسى ربه.

لترتفع اليد العاقة وتبطش بالأب المسكين وتضربه .. ضـــرب أحمد والده وعلى مرأى من الجميع لم يخف الله في الســـماء .. ولم يرق قلبه لوالده الذي أضناه مر السنين في تنشئة وتربيته ولكن ذلك

لم يثمر فيه .. كما أنه لم يستحي من الناس والذين كادوا يفتكون به لولا أن رفقة السوء انتشلته فحملوه في سيارتهم ليغادروا المكان إلى حيث الفجور والفساد .. ألأم وابنتها يتصارخن مـــن داخـــل البيت .. بكى الأب بدل الدموع دمًا، وقبل ذلك بكى قلبه لهـــذا الموقف المخزي الذي أوقفه ابنه إياه .. لقد أبكى هذا الموقف كـــل من حضر من الناس .. أي زمن هذا يعيشه هذا العـــاق .. وبـــأي قلب متفطر سيكون قلبك أيها الأب المسكين؟

لم يَدْعُ عليه الأب بل دخل منزله واستقبل القبلة ورفع يديـــه يدعو له: اللهم أهد أحمد، اللهم يسر له سبل الصلاح .. اللهم اغفر له واعف عنه .. اللهم أصلح لي ابني الوحيد .. والأم تؤمن علـــى دعائه.

توالت الأيام .. وانقطعت أخبار أحمد، بل إنه لم يعد يرى في جنبات حيه .. ومضت على تلك الحادثة المخزية قرابة السنة وأحمد مختف لا يبدو للعيان .. أما والده فقد اكتوى قلباهما بنـــار بُعْـــده عنهما .. لم يهدأ لهما بال .. ولم يقر لهما قرار بحثًا عنه تحريًا عـــن أخباره بذلا جهدًا في السؤال عنه وعن أحواله .. وإذ بالأمر يتضح إنه يقبع في السجن بتهمة القبض عليه وبحوزته مخـــدر (حشـــيش) وهذه نهاية حتمية للانسياق في طريق الضلال والرفقة السيئة، وقبل ذلك البعد عن الله.

تلاطمت الآلام من جديد على قلب ذلك الأب المكلوم وبدأ يحسب مسافات الحنين والعطف داخل فؤاده وتناسى كل ألـــوان

العقوق والتي تذوق مرارها من فلذة كبده كما حرقــت اللوعــة والحسرة فؤاد أمه والتي سكبت الدموع الحرى على مصــير ابنــها وقرة عينها .. لم يتركوا أحمد وحيدًا في محنته هذه .. بينما تخلــى عنه رفاقه، بل وتبرؤوا منه، لقد وقف معه أهله وساندوه في أزمتــه .. إنهم يدعون الله أن يفرج عن أحمد .. وأنْ يصلح حاله ويفــتح على قلبه .. ها هو أحمد .. تتضح له الرؤية وتتكشف له الأمــور فيعتصر قلبه حسرة وأسى على تلك الأيام الخــوالي في الضــلال والضياع.

ها هي تلك الصورة المخزية تتراءى أمام ناظريه بل لا تكــاد تفارق مخيلته .. إنه يتأمل تلك اليد الغادرة التي بطشت بأعز الناس إليه كيف فعل ذلك كيف استجرأ على ذلك حدَّث نفسه لــو لم يكن حرام علي لقطعتها.

ذرفت دموع الندم من مقلتي أحمد .. لقد كان ضحية سهلة وفريسة مستساغة لقرناء السوء .. ردد أحمد لا شعوريًا لا بارك الله فيهم ولا في صداقتهم وما هي إلا دقائق حتى أعلن نداء الحق مــن المسجد المجاور وقت دخول الصلاة .. فصرخت آلام السنين مــن داخل كوامن نفسه وانسابت الدموع مجددًا من مقلتيه علّها تغسل درن الماضي المُر ونتنه .. آه ما أجمل هذا النداء العذب وما أعــذب صوت الحق وهو يتردد في الأرجاء سبحان الله وكأني لأول مــرة أسمعه لقد كان قلبي ملبدًا بظلمة المعاصي والذنوب أحس بالخفــة والنشوة والارتياح فقام للوضوء وصلى الله بخشوع وتأني وأقبــل على رب غفور رحيم.

هكذا استمرت حياة أحمد في السجن .. إنابةً وتوبةً ونــدمًا على ما فات وعودة إلى الله، ما أروع هذه الحياة .. حياة الإيمــان والطاعة والطمأنينة .. إنها حقًا الراحة والسعادة .. هذا ما كــان يردده أحمد دائمًا.

خرج أحمد للحياة إنسانًا آخر يحمل بين جنبيه قلبًا متفطــرًا وجبينًا أغر وهامة شامخة، بل وهمة عالية تعانق عنان السماء ذهــب إلى والديه وقبل رأسيهما وخضع بين يديهما وبكى على ســالف عهده معهما .. لا يريد من الدنيا سوى رضا الله ثم رضا والديه.

أقسم ألا يبيت تلك الليلة إلا بين جنبــات مكــة المكرمــة ونفحاتها العبقة، استأذن والديه في ذلك فأذنا له بل وشجعاه عليــه .. فكم يسعدهما أن يكون لهما ابن صالح يدعو لهما.

ذهب هناك واعتمر وصلى وأناب .. بكى واعتبر.

وعندما عاد إلى الرياض أقسم مرة أخرى ألا يعيش إلا بــين مدفع ورشاش وحجر أشم على جبهات أفغانستان .. حمل أمتعتــه وزاده لسفره ورحل هناك حيث الشهادة والجهاد بالنفس والمــال، رحل من ليلته تلك إلى الجبال الشم والحيــاة الإيمانيــة والســعادة الحقيقية.

وبعد رحيل أحمد بشهر إلى الجهاد وبعد التدريبات المكثفــة على كيفية استخدام الرشاش والمدافع وبعد أن أصبحت النفــوس الأبية تتوق، بل وتتشوق لنيل الشــهادة في ســبيل الله فيتســارع الشباب يقدمون أرواحهم ونفوسهم رخيصة في ســبيل الله .. إذا

بثلة من الشباب الصالحين يفوح عبق التقى والصلاح والخير مـــن محياهم يزورون بيت أحمد فيستقبلهم والده بالحفـــاوة والترحـــاب خاصة بعد أن عرف أنهم أصدقاؤه الصالحون والذين شاركوه الخير في أرض المعركة .. سأل متلهفًا عن حال أحمد وأخباره قالوا لـــه أبشر يا عم أحمد بخير وفضل من الله .. أبشر فقد استشهد أحمد في ساحة الجهاد .. لقد مات وهو يردد الشهادة وقد ارتسمت محيـــاه ابتسامة الرضى والسعادة .. حينها بكى الأب واسترجع ورفع يديه للسماء قائلاً:

الحمد لله الذي شرفني بشهادته مع المؤمنين الأفذاذ الأبطـــال وكأنها جالت بخاطر الوالد صورة أحمد المظلمة عندما كان عاقًـــا لوالديه .. عاصيًا لخالقه .. تافهًا لا قيمة له ولا قدر .. الكل يخشاه ويحذر منه، ومن ثم صورته المشرقة وعزيمته القوية وإيمانه الصـــادق، بل وهمته العالية والتي جعلته يأبى إلا أن يموت في أحضان الدبابـــة والرشاش والمدفع .. يموت لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى .. اهـــ. نحسبه كذلك ولا نزكـــي علـــى الله أحدًا[1].



(١) وصلتني هذه القصة من الأخت العزيز أم زياد، بارك الله في جهودها.

(١٠) متى تنتهي الشحناء والعداوات؟!!!

أخذت تسترجع شريط ذكرياتها قلبت صفحات الماضي علّها تجد ما يبرر موقف أخيتها منها .. زادت حيرتها وازداد معه قلقهـــا .. أمسكت بالقلم وأخذت تخط شجونها ونبضات قلبها النـــازف المجروح .. سطَّرت ما جال في خاطرها وقد زفرت زفـــرة الحـــزن والألم .. وصرخت صرخة العناء والوجل تساءلت ما بال البـــؤرة بيني وبين أخيتي اتسعت .. ما هذا الجفاء الذي بدت تلوح أعلامه ممن اعتبرتها الأخت والصديقة واعتبرتني كذلك .. مـــاذا بهـــا يـــا ترى؟!! وما الذي أصابها؟!! وما الذي جنته يداي تجاهها؟!!

ألفت نفسها كآبة موحشة، تحشرج صوتها: تمتمت بعبـــارات خفية وكأنها تحادث أحدًا .. ماذا اعتراك يا رفيقـــة دربي؟! مـــاذا دهاك وقد تعاهدنا أن نمضي سويًا في طريق الـــدعوة الشـــائك .. حاولت أستجديك بابتسامة مني فرددتها علي غاضبة، حاولـــت أن أحادثك بلين ومحبة فرددت على الكرة خاسرة، ما بـــالي أحـــاول الاقتراب منك وأنت تبتعدين وتبتعدين، بل وتهربين مني.

توقفت برهة عن الكتابة وقد تسمرت عيناها في ورقة أمامها مكتوب عليها أبيات رائعة .. نظرت إليها تأملتها جيدًا تنهـــدتْ وقالت صدقت يا من قلت:

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة

فلا خير في خل يجيء تكلفًـــا

ولا خير في خل يخون خليلــه

ويلقاه من بعد المــودة بالجفــا

وينكر عيشًا قد تقادم عهـــده

ويظهر سرًا كان بالأمس قـــد

سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها

صديق صدوق صادق الوعـــد

لقد شطح خيالها بعيدًا هناك عند صـــديقتها .. وتـــذكرت مواقفها معها وما كان منها وما قدمته لها – عادت تتساءل مـــن جديد – أو قد أكون جرحتها بكلمة؟!! أو أكـــون أخطـــأت في حقها؟!! يا لله ماذا جرى بيننا؟!! وما التصرف الذي صدر مـــني حيالها؟! أسئلة كثيرة تدور في مخيلتي ولا أجد لها جوابًا .. إنهـــا لا تكاد الكلمة تخرج من بين شفاهي إلا وتقتلها بنظراتها المسمومة .. إنها لا تعطيني حتى الفرصة لمناقشتها .. لسؤالها أو حتى الاستفسار منها .. لقد نست، بل تناست تلك الأيام الرائعة التي عشناها سويًا في طاعة الله .. نهلنا من معين العلم الصافي .. تذاكرنا كتاب الله .. كنا نتناصح فيه، أكل هذا يذهب سدى؟!! إنها من رددت علـــى لسانها «**المسلم لا يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث**».

إنها من كانت توصيني بوجوب الإتيان بحقوق الأخوة كاملة كانت تذكرنا بثواب المتحابين في الله وما لهم من الجزاء الـــدنيوي والأخروي .. أين هذا كله؟! أين هذا كله؟ توقفت عن الكتابـــة برهة وقد أغرورقت ورقت عيناها بالدموع .. فاختلطت دمـــوع القهر بدموع الحبر لتستمر في الكتابة فتكمل.

فعزيزتي: ما الذي أجحف بحق الأخوة .. وجعـــل القلـــوب تتنافر والأجساد تتباعد والشيطان يضحك فرحًا وطربًا لانتصــــاره ونجاحه .. لقد بكى قلبي قبل عيني على الأيام الجميلة الراحلة على تألفنا وتوادنا .. فإلى متى نمضي على هذه الحال؟ ونسير في هـــذه الحياة متنافرين .. متشاحنين .. وما الدافع لذلك كله؟

أخية: إنني متأكدة أن هناك أسبابًا ودوافع لهـــذا التصـــرف العجيب من صديقة العمر .. ممن شاركتني أفراحـــي وأحـــزاني .. ولكن ما هو يا ترى؟!! هذا ما حيرني .. وأشغل بالي .. وأقـــضَّ مضجعي .. ليتني أعرف السبب.

صديقتي أو تظنين أنني تركت الأمر يمر هكذا لقـــد بحثـــت وتقصيت وتحريت وتثبت ومع مرور الأيام اتضح لي الأمـــر جليًـــا وانكشف لي الغطاء وظهر الحق من الباطن وعلمت ما جنته يـــدي الواشيات المفسدات ممن اتخذن نقل الكلام على وجـــه الإفســـاد والنميمة والكذب مهنة لهنّ لنشر سمومهن القاتلة وسعيهن في إفساد العلاقات الحميمة «**ولا يدخل الجنة نمام**» لذا لم أجد بدأ من كتابة ورقتي هذه إليك.

رفعت بصرها إلى الساعة الحائطية وقد سمعت دقاتهـــا الـــتي قطعت بصوتها سكون المكان ..ز أوه إنها الساعة الثانية ليلاً تنهدت .. آه .. أنى للنوم أن يداعب جفوني ..ز أنى للراحة تجد طريقها إلى نفسي وبيني وبين أخيتي شحناء فعادت مجددًا لتخط عباراتها عـــبر صفحات الزمن.

أخية: علمت أن هذا الحاجز الصلب بيني وبينك ما هو إلا من صنع الشيطان وكيد الكائدين على شدة فرحتي بمعرفة السبب على قدر ما حزنت وتألمت كيف أن أخيتي انساقت وبسهولة وأصـــغت سمعها للقيل والقال .. لقد اكتشفت أن هناك من نقل كلامًا على لساني كذبًا وزورًا يسيء إليك وأنت صدقت وبهذه الســـهولة .. لماذا لم تسأليني؟!! لماذا لم تتأكدي من صدق الخبر المنقول؟ لمـــاذا تسرعت في الحكم علي .. خاصة أن علاقتي بـــك قويـــة، أبهـــذه السهولة تذهب تلك الأخوة الإيمانية سدى؟!! لقد كنت أنا وأنت فريسة مستساغة وضحية سهلة للظنـــون والشـــكوك والكـــذب والبهتان .. لقد كان هذا الأمر بالنسبة لي مفاجـــأة بـــل فاجعـــة وصدمة قوية .. ولا أقول إلا حسبي الله ونعم الوكيـــل .. وإلى الله المشتكى.

كنت أتمنى أن تكون صداقتنا وأخوتنا أكبر من هذه السفاسف .. كنت أتمنى ألا تستسلمي وبسهولة لمثل تلك التفاهـــات الـــتي يروجها من في قلبه مرض أو غيرة أو حسد .. لقد عرفتك قويـــة صلبة لا تهزّك المؤثرات مهما كانت، فما بالك الآن خارت قواك .. وضعفت عزيمتك .. واستسلمت وبسهولة لتلك الترهات .. ومـــع كل ما سبق فإني ما زلت أمد يدي لك يا أخيتي وأدعوك أن تفتحي معي صفحة جديدة .. وأن تلقي بعبارات الوشاة وراء ظهـــرك .. ولا تلتفتي للكائدين المغرضين .. ولتعلمي أنه رغم تلك الزوبعة .. ورغم تلك الرياح العاتية .. ورغم إساءة الظن بي فإن عرى الأخوة الإسلامية ما زالت جذورها مغروسة في قلبي تجاهـــك .. لا ولـــن

يقتلعها شيء لأنها بدأت في الله .. وستنتهي كذلك – بمشيئة الله – وفؤادي لا يحمل لك إلا الخير والمحبة والمودة ودعوات أخلّفها لـــك في ظهر الغيب .. اهــ.

يقول الله تعالى: ﴿**الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِـــبَعْضٍ عَـــدُوٌّ إِلَّـــا الْمُتَّقِينَ**﴾ [الزخرف: ٦٧].



(١١) ليلة فرح .. وترح ..

إنها ليلة العمر السعادة تغمـــر الوجـــوه المهنئـــة .. الأهـــل والأصحاب والأقارب أتوا من كل حدب وصوب لحضور هـــذه المناسبة السعيدة .. وهدى تكاد تخفي فرحتـــها المشـــوبة بالحيـــاء والخجل وتنتابها حالات الرهبة والخوف لصعوبة الموقف مشـــاعر متضاربة تحاول إخفاءها فلا تستطيع .. لقد تكلف الأهل كـــثيرًا وبذلوا جهودًا كبيرة وأنفقوا الأموال الطائلة لهذه المناسبة وبـــدت مظاهر التفاخر والكبرياء تلوح أعلامها في كل شيء .. الأثاث .. الملابس .. الحلي حتى المطاعم والمشارب إنها فرحة ابنتـــهم آخـــر العنقود .. جاءت اللحظات الحاسمة وأقبـــل المـــدعوون زرفـــات ووحدانًا ..وأُضيئت الأنوار، وقرعت الطبول، والدفوف، وأخـــذ كثير من النساء يتباهين بما سترن به أجسادهن من ملابس شـــفافة وضيقة ومفتوحة وبالطبع باهظة الثمن والحقيقة لا ستر .. تسمَّرت الأبصار وأصغت الأسماع لكلمات الغناء الفاحش المبتـــذل والـــتي انطلقت من حناجر المغنيات .. النفوس مشتاقة للـــرقص واللـــهو والطرب .. وبالفعل انطلق ثلة من النساء يتراقصن يهزهن الطـــرب هزًا .. ويعبث بهن الشيطان عبثًا ومن حولهن المتفرجات قد شدهن طريقة الرقص بأنواعه فمن فاغرة فاها ومن مبتسمة لهـــذا العبـــث العجيب، ومن مشجعة بالمرح والتصفيق، وبينما هم كـــذلك وفي قمة تحمسهن وقد غطت الغفلة العقول وقبل ذلك القلوب والإيمان

يستغيث ويستنجد يشعر بالغربة في دنيا مسعورة متلهفـــة للـــهوى والشهوة .. ووسط هذا الصخب والضجيج وحماس الرقص والغناء والتصفيق إذا بامرأة ممن لعب الشيطان بعقلها فســترت جســدها بثوب جله فتحات أبدت من خلاله المفاتن والعورات .. أخــذت تتفنن في الرقص وقد أسعدها نظرات الإعجاب والدهشة من النساء .. وأبهجتها كلمات التشجيع والثناء والإطراء والتي انطلقت مـــن أفواههن .. وقد بذلت قصارى جهدها لتنال استحسان النساء وأي عقول هذه عندما تكون هذه التوافه أكبر اهتمـــامهن .. وفجـــأة وبينما هي كذلك إذ بهذه المرأة تسقط على الأرض .. تســقط ولا حراك .. فيتوقف الغناء وتكف الأيدي عن التصــفيق .. ويـــذهل الجميع وتتراجع بعض النساء .. بينما تتقدم أخريات لمساعدتها وهن يرددن قد يكون دوار أصابها جراء الرقص .. قد .. وقد وقـــد .. احتمالات عدة ولا يعلمن ما الصواب .. حُملت .. ووضــعت في غرفة قريبة علَّها تستيقظ .. رشوها بالماء .. حركوها .. قلبوها .. وزادت دهشتهم تحول لونها الجميل الأبيض والمشرئب بحمـــرة إلى سواد وظلمة – والعياذ بالله – لم يجدوا محيدًا من الذهاب بهـــا إلى أقرب مستشفى وفي أسرع وقت ممكن كان هذا في منتصف الليل، وهناك تحسس الطبيب نبضات قلبها .. ليفاجئهم بأنها قد فارقـــت الحياة لحظة سقوطها .. وما بها من علة إلا أن أجلها قد حـــان .. حان أجلها وهي على تلك الحال .. وختم لها بذلك العمل.

أمّا العروس هدى فقد انقلب فرحها حزنًا .. وهـــي تســـمع همسات النساء اللاذعة .. إنها ليلة نكد .. هذا ليس فرح .. تفرق

الحضور قبل تناول العشاء .. وخيم الصمت على المكـــان ونشـــر الحزن والكآبة ظلاله على أهل العروسين، بل وأوحش المكـــان .. وحقًا أمرٌ يبنى على انتهاك محارم الله وارتكاب الذنوب والمعاصـــي فإنه يكون شؤمًا ووبالاً على صاحبه .. وأنى يجد التوفيق طريقًا إليه وهو في ظل الشيطان وكنفه؟!! – فنســـأل الله العافيـــة والســـلام والسلامة –.



(١٢) حضارة زائفة

وقفتُ من على بعد أرمقها وتمتمتها الغريبة حاولت أن أقترب منها وبالفعل بادرتها بإلقاء التحية: السلام عليكم ورحمة الله.

ردت علي بلغة شبيهة بتلك التي تـــأتي مـــن وفـــود الخـــدم والسائقين

عجبًا .. لكن ملامحها توحي لي بأنها عربية بل وتقول إنـــني مسلمة بل واسمها واسم عائلتها ولكن مظهرها وهيئتها تنبئ أنهـــا نشأت وترعرعت في الخارج بل ومعجبة جدًا بلغتهم وعاداتهم حتى طريقة لبسها بل وتصفيف شعرها .. و .. و .. إلخ، مما يأتينا مـــن زخم الحضارة الغربية الزائفة.

أردفت .. ليس هذا فحسب .. قربت ابنتـــها ذات الســـت سنوات .. وقد ألبستها بطريقة عجيبة .. حتى ظننت أنها ولـــد .. وأخذت تسألها ما معنى أخت بالإنجليزية ما معنى كذا والصـــغيرة ترصد لها وتكرر كالببغاء تجيبها بكل ثقة والأم ترمق ابنتها بكـــل فخر واعتزاز وهي سعيدة بإجابات فلذة كبدها.

عجبت منها .. عبثًا حاولت أن أسال الصغيرة ما إذا كانـــت تجيد قراءة الفاتحة أو قصار السور أو حتى تنطق بالبسملة .. نظرت إلي باشمئزاز مشيرة بيدها قائلة .. نو .. نو.. ما زالت صغيرة على هذا الكلام.

أما أنا فقد أصابني الألم من أن مثل هذه النمـــاذج تنتســـب للإسلام .. فقلت لها: ألم تسمعي عن تلك الأمريكية التي أسلمت منذ حوالي عشرين سنة وهي تحاول خلال هذه المدة أن تنطق باللغة العربية فلم تستطع، ولكن العجيب أنها حفظت القرآن الكريم أما ما عداه من الكلام فلا .. وأنت نشأت في بلد مسلم عربي وبين أبوين مسلمين عربيين .. وتتنكرين لدينك ولغتك وبلدك.

فارق كبير بينك وبين تلك الأخت التي التقيت بها من بـــلاد البوسنة وتحدثت معها .. وقد كانت تجيد اللغة العربية الفصـــحى وعندما أومأت على صغيرتها التي أشبه ما تكون بالدمية لشدة جمالها وقد ألبستها ثوبًا طويلاً ساترًا .. فسألتها: ما اسمك يا حلوتي؟

قالت بلهجة عربية فصيحة وبالحركات: فَاطِمَة

لقد أثلجت صدري وغرست في وجداني زهرة الأمل الجديد لنصرة دين الله .. وبمثل هؤلاء يعز الدين وينتصر.

أخية: إن أعداء الإسلام يسعون جاهدين لمحو معـــالم ديننـــا الحنيف ومن ذلك لغتنا العربية، أتدرين لماذا؟ لأنها لغة القرآن الكريم مصدر عزّنا ومكانتنا وسعادتنا في الدارين، يحـــاولون أن يصـــبغوا حياتنا بصبغة غربية من جميع النواحي .. في اللباس .. الكـــلام .. العادات .. والتقاليد .. وللأسف وجدوا المستجيبين والمقلدين لهم من أمثالك من باب مواكبة الحضـــارة والتقـــدم المزعـــوم .. وأي حضارة التي تجعلك تخرجين مبتذلة .. عارية .. ليس لك شخصـــية مستقلة تخصك .. إنه عين الانهزامية والتخاذل أن ننســـاق وبهـــذه

السهولة لأعدائنا ونصبح إمَّعة لكل وافد من بلاد الأعـــاجم وقـــد يكون مخالفًا لديننا .. ونحن مَنْ خصّنا الله بأسمى الرسالات .. بـــل وجعلنا من خير الأمم .. ووكلنا بأعظم المهام **﴿كُنْتُمْ خَيْـــرَ أُمَّـــةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَـــرِ وَتُؤْمِنُـــونَ بِاللَّهِ﴾** [آل عمران: ١١٠]، نحن من جُعل خاتم النبيين والمرســـلين منا .. أين أنت من مقولة فاروق الأمة: «نحـــن قـــوم أعزنـــا الله بالإسلام فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله».

أخية: إن هذا العالم ليس عالمك .. هذه العـــادات ليســـت عاداتك .. أنت لم تخلقي لهذا .. ومع حماسي أثناء الكلام، أظهرت نوعًا من اللامبالاة والاشمئزاز ويبدو أنها لم تعجبها كلمـــاتي .. ولم تُرق لها عباراتي .. فودعتني ملوحة بأطراف أصابعها .. باي .. باي .. أراك مرة أخرى .. أنا مشغولة الآن.

أما أنا فقد اعتصر قلبي حزنًا لحالها ودعوت الله أن يهديها .. ويفتح على قلبها .. ويريها الحق حقًا وييسر لها سلوكه .. اهـــ.

* * * *

(١٣) شبح الطلاق

بأي نظرة ينظر المجتمع للمطلقة .. أليست إنسانة مثل غيرهـــا من الناس .. لماذا هذه النظرة القاسية للمطلقة وكأنهـــا ارتكبـــت حرامًا أو جريمة لا تغتفر .. ألا يكفيها ما حل بها من بلاء .. إنهـــا حقًا مسكينة.

هذا ما أفضت به هيفاء لصديقتها وداد وقـــد أدمـــى قلبـــها نظرات النساء، بل وأيضًا الرجال لعموم المطلقات ومن بينهن هـــي .. فما أن يتقدم لها أحد ويعلم أنها مطلقة إلا وينسحب، بل ويفـــر هاربًا.

أكملت: إنني مثل غيري من الفتيات أحلم ببيت أُسري هادئ بأطفال يعيشون في كنفي وحضني ولكن ماذا أفعل إذا لم يحصـــل التوافق والتوفيق .. ماذا أفعل إذًا؟

استحالت حياتي جحيمًا لا يطاق .. لقد بذلت كل جهـــدي حتى لا يهدم بيتي .. ولكن ما باليد حيلة .. والحمد لله على كـــل حال .. إني راضية بما كتبه الله لي.

في أثناء ذلك شطح تفكيرها بعيدًا وعادت عـــدة ســـنين إلى الوراء .. فتراءت لها صورة الماضي الأليم في بيـــت مطلقهـــا .. لا تنسى تلك المعاناة التي واجهتها منه ومن أهله .. ثـــلاث ســـنوات كانت بالنسبة لها عذاب وظلم وهوان وشقاء .. وكانت تقابل كل

ذلك بالصبر واحتساب الأجر واللين في التعامل معهم لعل قلــوبهم تلين .. لعل حالهم يصلح ولكن لا فائدة كانوا يــزدادون صــلفًا وتجبرًا وظلمًا، بل وصل بهم الأمر إلى ضربها وهـــي في شـــهورها الأولى لأول حمل لها .. فنقلت على أثر ذلك إلى المستشفى فقــد سبب فعلهم ذاك في سقوط حملها .. كان شبح الطـــلاق يطـــارد هيفاء في كل مكان .. لم يغب عن مخيلتها ذلك اليوم العصـــيب في حياتها عندما طردت من قبل زوجها وأهله .. أخرجوها إلى قارعة الطريق وفي وقت متأخر من الليل وسبب ذلـــك انشـــغالها بكـــي الملابس عن وجبة العشاء التي كانت على النار مما أدى إلى احتراقه، إنا تتحمل أعباء البيت كلها على رأسها .. وما أن علموا بـــذلك حتى تجمعت عليها الأسرة .. سبًا وشتمًا، بل وضربًا .. وعنـــدما دافعت عن نفسها لترفض هذا الظلم وتدفعه عن نفسها .. قـــابلوا ذلك بطردها خارج البيت .. فهل يصدق أحد أن هنـــاك أناسًـــا يتعاملون بمثل هذا الظلم والاستبداد والجبروت .. عادت هيفاء إلى منزل أهلها كسيرة الخاطر باكية العين .. تعاني الظلم والهم والحـــزن والإرهاق .. ولكن دعوة المظلوم مستجابة ليس بينـــها وبـــين الله حجاب، لقد غفلوا عن مراقبة الله لهم .. نسوا أن عين الله لا تنـــام .. لم يبالوا بحرقة المظلوم وتفتت كبده وصدق دعائه وحقًا:

تنام عيناك والمظلـــوم يـــدعو عليـــك وعـــين الله لم تـــنم

وسبحان الله لم يمر على هذه الحادثة معهـــم إلا أســـبوعان ويتناقل الناس خبر أن فلانة الابنة الكبيرة للعائلة تتطلـــق وعنـــدها خمسة من الأبناء .. عادت إلى أهلها مهانة ذليلة مطرودة مثلها مثل

هيفاء تمامًا .. ولقد جاءت جارتها أم أحمد لتزف لها هـــذا الخـــبر وكأنها تهدي لها بشارة، فردت هيفاء بعد أن علا محياهـــا الكآبـــة والحزن .. اللهم لا شماتة .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. كان الله في عونها .. وجبر قلبها على بعدها عن أبنائها.

فقالت الجارة والتي علتها الدهشة والاستغراب: أبعـــد كـــل الذي فعلوه معك يكون موقفك هكذا؟!! فقالت: هذا أمر كتبه الله علي والحمد لله على كل حال .. وكيف نفرح بمصاب غيرنا ونحن قد تذوقناه .. إنه الإيمان والتسليم واليقين والرضـــى بقضـــاء الله وقدره.

ولكن ما يكدر صفو هيفاء ويقض مضجعها النظرة الســـيئة للمطلقات .. ليتها تتغير وتزال عن عقول الناس .. أفاقتْ هيفاء من أفكارها وهواجسها على صوت صديقتها وداد والـــتي تيقنـــت أن صديقتها كانت تستعرض شريط ماضيها فتركتها مع نفسها قلـــيلاً فاعتذرت هيفاء لصديقتها قائلة: إني أسعى جاهدة لمحـــو صـــفحة الماضي من مخيلتي ولكنني لا أستطيع .. إني أدعـــو الله أن يلـــهمني الصبر والثبات على دينه .. ومع كل ما سبق فإني راضية بما قسمه الله لي ولكن غيري غير راضٍ .. وكوني فشلت في زواجي الأول لا يعني أنني لا أصلح لأن أكون زوجة ناجحة وأمًا حنونًا .. لمـــاذا لا نمنح فرصة جديدة .. لماذا لا نخوض التجربة مرة أخرى .. لماذا لا تزول تلك النظرة القاصرة للمطلقات ..؟!!! اهـــ.

(١٤) فدائية الأسرة

ضحكاتها الطفولية تملأ الأرجاء وبراءتها العذبة تبهج الحياة .. لا تحمل في نفسها همًا .. ولا يكدر صفوها شيء .. أكبر آمالهــا وطموحاتها أن تحصل على لعبة جميلة أو فستان جديد أو حلــوى لذيذة مثلها مثل غيرها من الفتيات وهكذا الأحلام الطفولية محدودة وبريئة ببراءة سنهم الطفولي ولكن عائشة لم تجد من ذلك شيئًا، كل ذلك بات عندها مجرد أماني وأحلام .. لا تراه إلا مع أبناء الجيران أو أقاربها .. فعمل والدها ودخله المحدود جدًا والذي لا يكاد يسد رمقهم فضلاً عن الأمور الأخرى لا يشجع على ذلك .. وهم من فئة يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف.

كبرت عائشة وكبرت معها أحلامها وزادت طلباتها خاصة في هذا الزمن العصيب الذي انتشرت فيه المظاهر البراقة واشتعل فيــه اللهاث المسعور على هذه الدنيا والذي لا يطفئه إلا القناعة والرضى بما قسمه الله وما كل ما يتمنى المرء يدركه .. كانت عائشة تــرى قريناتها في المدرسة يلبسن الجديد .. ويتفنن في أحذيتهن وحقائبهن .. بل حتى في دفاترهن وأقلامهن .. بينما هي تمكث عدة سنوات بنفس المريول حتى تمزق، أما حذاؤها فحدث ولا حرج فقد تآكل لكثرة ما مشت به .. بل وأصبح ضيقًا على قــدميها .. فتبكــي بصمت وحرقة .. تتساءل .. لماذا حالي هكذا؟!! إنهــا تريــد أن تكون مثلها مثل زميلاتها .. كم صارحت أمها بذلك .. فتتألم الأم

وتعتذر لابنتها بضيق ذات اليد .. بل وتضطر أحيانًـــا للاســـتدانة لتحضر لبناهما ما يتمنين ولكن إلى متى الديوان؟!! حـــتى ماكينـــة الخياطة لا تفي بالغرض المطلوب .. أيام شدة وبؤس وشقاء لعلـــها تنقضي .. هذا ما كانت تردده الأم دائمًا..

اجتازت الفتاة مرحلتها الثانوية ومن ثم مرحلتـــها الجامعيـــة وذلك بكل صعوبة ومشقة .. ومن ثم زفت إليها الوظيفة .. فانفتح أمام الأسرة باب الأمل والسعادة، واستبشروا خيرًا.

رددت الفتاة لعلي أعوض تلك البطون التي ذاقـــت مـــرارة الحرمان .. وتلك الأبدان والتي قل ما سعدت بلبس جديد .. لعلي .. ولعلي .. ولعلي .. أماني كثيرة .. وأحلام عريضة .. رفعـــت بصرها إلى السماء داعية: يا رب أعني .. يا رب وفقني .. يـــا رب يسر لي أمري .. سرح بها خيالها لتعود إلى الماضي القريب وتتذكر تلك الليالي والأيام البائسة والتي عاشتها في ظل الفقر .. وكنـــف الشدة والضيق .. كم رأت دمعات أمها تسيل على خديها وهـــي الصابرة المحتسبة .. كم انحنى ظهرها وهي تحوك الملابس للأخريات لعلها تساهم بشيء بسيط يسعد أبناءها وأبوها ذلك الرجل الكهل الذي بذل كل ما في وسعه، فواصل الليل بالنهار لعله يحقق لأبنائه شيئًا مما يتمنونه على الرغم من تحذيرات الطبيب له .. وخطر ذلك على صحته ولكن ما باليد حيلة .. ذكريات مؤلمـــة حزينـــة .. لا أعادها الله.

– نعم سأبذل قصارى جهدي حتى لا يعاني إخوتي ما عانيت .. سأقف معهم سأساندهم لقد تذوقت حياة العوز والحاجة .. ولا أريد أن يتذوق إخوتي ما تجرعت .. سأعمل ثم أعمـــل ثم أعمـــل وسأمد والدي بكل ما أستطيع.

هذا ما رددته عائشة بينها وبين نفسها .. وبالفعل شمرت عن ساعد الجد .. فأخذت تعمل بكل إخلاص وتفاني .. وفي نهاية كل شهر تعطي والدها كل ما تكسبه ولا تبقي لنفسها إلا النزر اليسير محتسبة ذلك عند الله .. والوالد بدوره ينفق منه على أسرته فظروفه الصحية وكبر سنه أوهن جسده فلم يستطع إكمال مسيرة العمل .. وقليلاً قليلاً تتحسن ظروف الأسرة المعيشية.

وتكبر عائشة .. وتحتل المنزلة والتقدير والمودة بـــين أبويهـــا وإخوانها .. بل وكل من يعرفها فهي فتاة طيبة القلـــب .. لبقـــة مستقيمة تخاف الله متمسكة بدينها ذات سيرة حسنة ورجاحة عقل .. بل وعرفت في العائلة بالأم الحنون والأخت العطـــوف .. وإذا بالأم ترمق ابنتها فتتساءل: صغيرة الأمس أصبحت عروسة اليوم متى أفرح بها؟

فتجيب نفسها: ولكنَّه النصيب لم يأت بعد.

تشغل الوظيفة كل حياة عائشة بل وتسلب لبَّها .. فهـــي في المدرسة ليست فقط معلمة، بل ومربية ناصحة مشفقة تحس بعظـــم المسؤولية التي تحملتها وأن البراعم التي بين يديها من بنات المسلمين ما هي إلا أمانة ستسأل عنها يوم العرض الأكبر .. فهي مخلصة في

عملها .. متفانية في بذل كل ما تستطيع في طاعة ربها.

تمر الأيام ويزداد المرض على أبيها .. ويشتد تعبـــه فتحـــرص الفتاة على ملازمة أبيها فترة مرضه حتى أنها تغيبت عـــن المدرســـة لتمكث بجانبه .. ويصر الأب تلح الأم في أن تـــذهب عائشـــة إلى مدرستها فتذعن الفتاة لتذهب مرغمة وفؤادها معلق عند أبيهـــا .. تسعى جاهدة لنيل رضاه فرضى الله من رضى الوالدين .. وتعـــود ذات يوم وتتفاجأ بازدحام الرجال واكتظـــاظ النســـاء في بيتـــهم فتهرول مسرعة إلى أمها .. لتراها باكية .. تسألها بلهفة وذعر: ماذا حصل؟!! كيف أبي؟ أين هو؟!! ولكن الأم لا تجيبها إلا بالـــدموع .. فتحتضن ابنتها والتي علمت فيما بعد أن أباها قد توفـــاه الله .. مات وهو يقول: اللهم ارض عن عائشة فإني راض عنها.

أيام عصيبة وثقيلة مرت على هذه الأسرة .. وبالذات علـــى عائشة .. فهي تشعر أن المسؤولية على عاتقها تزداد .. وأنهـــا الآن عائل البيت وإخوانها ما زالوا صغارًا .. تمر الأيام ويمضي الوقت .. ويتقدم لعائشة الخطاب الواحد تلو الآخر .. ولكنها تؤجـــل هـــذا الموضوع أو حتى التفكير فيه .. وهذا هو خطؤها الذي وقعت فيه.

فهي تقول: إن أمامها مهمة لا بد أن تؤديها .. ورسالة لا بد أن تنهيها إنها تنتظر أن يكبر إخوانها فيعتمدوا علـــى أنفســـهم .. ويتحملوا عنها عبء المسؤولية .. ولا تدري أن هذا الأمر سيكون على حساب حياتها.

ويمر العمر بذات الخلق والدين والمال والجمـــال .. ويكـــبر الصغار .. ويحتلون مراكز مرموقة .. ويتفرق الأبناء .. وتتـــزوج أصغر البنات .. أما عائشة فقد طال به العمر وأصبحت تنتظر من يؤنس وحشتها .. وتتلهف لكل طارق تظنه ابن الحلال ولكن أملها يخيب .. وأحلامها تتلاشى .. لقد تملكها الحزن وضاقت نفسها .. فنداء الفطرة يدوي في أعماقها ويجلجل في حنايا فؤادها .. إنها تحلم بذلك الطفل الذي تضمه إلى صدرها تناغيه .. تهبه كل ما تملك .. ولكن هل يتحقق الحلم .. يساورها القلق والخوف .. فهي تـــرى الشيب يغزو مفرقها والتجاعيد تزحف إلى وجههـــا الصـــبوح .. والهموم تعصف بها من كل جانب .. والحسرة تكاد تقتلها علـــى شباب ضاع لكنها تحتسبه عند الله .. الأم العجوز .. يشتد تعبها .. ويتقطع فؤادها حزنًا على ابنتها التي تراها أمامها وتشعر بمعاناتها .. وأرقها .. وعلامات الكآبة التي تبدو على محياها لكن ماذا تفعـــل لها؟!! لو كان العريس يباع لاشترته لها؟!!

ها هي عائشة تلازم الفراش لمرض ألم بها .. وقد يكون قهـــر الأيام .. وضغط الزمان .. وقليلاً تفارق فدائية الأسرة الحيـــاة .. وتلفظ أنفاسها الأخيرة .. تلفظ أنفاسها وقد شخص بصـــرها إلى السماء .. وارتسمت على محياها ابتسامة عذبة جميلة .. وقد رفعت سبّابتها مرددة الشهادتين بكل يقين وسكينة ووقار .. فما أجمـــل هذه الميتة .. وما أنقاها .. الجميع قد التف حولها ليودّعـــوا مـــن بذلت مالها وصحتها وشبابها لأجلهم .. ليودعوا الأم الحنـــون .. ودَّعوها والقلوب تقطر حزنًا وأسى على شهيدة الأسرة .. لك الله

يا عائشة، فقد كنت مطيعة لربك بارة بوالـــديك محبـــة للخــير لإخوانك .. لك الله وعوضك الله على صبرك وتحملك وعنائـــك بنعيم الجنة وأبشري بعريس الآخرة .. اهـــ.

